

اللغات الأفرنجية (١)

لهجت بعض الألسن في منافع اللغات الأوروبية ومضارها في مجتمعا عقيب ان قام صاحب المؤيد في الجمعية العمومية في الربيع الماضي وناقش ناظر معارف مصر في وجوب تعليم العلوم في المدارس الأميرية باللغة العربية فكان من أثر ذلك الحوار ان بطلت دروس الاشياء وجعل تدريس علم تقويم البلدان باللغة العربية في المدارس الابتدائية كما شرع في تعليم الرياضيات في السنين الأولى من المدارس الثانوية باللغة العربية أيضاً .

فقام بعض الناس متخذين من هذا الاصلاح حجة على قلة غناء اللغات الأفرنجية زاعمين ان في العربية ما يكفيها من العلوم . على حين كان مادعا اليه الداعون من التدريس بالعربية لمقصود آخر أريد به إحياء لغة البلاد اذا درست العلوم بها وإشراب نفوس المتعلمين حب أممهم ليمع النفع مما يتعلمون لا التنفير من تعلم اللغات الأفرنجية التي لا يمتري ماقلان في وجوب تعلمها على فريق كبير من الناس ولا سيما من تصدوا للنفع والتأليف والكتابة على نحو مايفعل علماء اليابان فيتعلمون الانكليزية كما يتعلمون لغتهم الاصلية .

نقول تعلم اللغات الأجنبية وما أحرانا ان نقول اتقانها لان المبادئ البسيطة منها قد لا تفيد المتعلم الا توهمه انه أصبح من العارفين . فان تعود علماءنا قديماً من نصف فقيه ونصف صوفي ونصف كاتب ونصف شاعر فما أحرانا ان نتعود من ناشيء يتعلم طرفاً من لغة لا يستفيد منها ولا يفيد . وليس معنى هذا انه يتحتم وجوباً على كل متعلم للغة أجنبية أن يكون فيها مؤلفاً خطيباً كاتباً مترجماً فهذا منافع لسنة الكون ولكن المطلوب ان يعرف الناس في تعلم احدى اللغات الأوروبية القدر الذي يؤهلهم للانتفاع بها في التجارة وأعمال الادارة والقضاء والعلم .

ولا مشاحة في أن أكثر من تعلموا اللغات الأجنبية من أبنائنا لم يتقنوها
وان حذقوها فلا يكون لهم من المعرفة بلغتهم ما يستطيعون معه ان يبروا به
عن أفكارهم وينقلوا اليها ما يهوزها من علوم الغرب وحضارته . بيد أن اللغة وان
أتقنها صاحبها لا تنفعه وينتفع بها النفع المطلوب الا اذا أضاف اليها علماً أو فناً
أخصى فيه واللغة آلة لا غاية وان كان من يتقن لغة أوروبية لا يتسنى له ذلك الا
بعد ان ينظر نظرة اجمالية في الفنون المتعارفة . أما ما يقوله بعض من لا يساعدهم
الوقت على تعلم لغة أجنبية من أنه ليس في النقل من اللغات الغربية كبيراً مرواً أن
العالم يستفيد من الوجود أكثر من استفادته مما دونه كبار أرباب العقول من أمم
الحضارة فهذا من الآراء التي يقصد بها الاعتذار عن التقصير ومن جهل شيئاً
عاداه . اذ من الثابت المقرر أننا مهما تأملنا في صحيفة الكون لا نستطيع أن
ندرس فيه نظام الاجتماع ولا تقنين القوانين ولا الطب ولا الهندسة ولا الفلك
والطبيعة والكيمياء وفنون الأدب والتاريخ ورسم الأرض وغيرها من الفروع
الكثيرة التي لا أسماء لها في العربية اذ لم يكن للعرب عهد بها ولا تم سعادة
مجتمع اليوم الا بتعلمها واتقانها . ومن قال بان أسلافنا من العرب قد أجالوا في
هذه العلوم قد اراح أنظارهم ووضعوا فيها ما وضعوا من رسائلهم وأسفارهم فهو
على صواب وخطأ . وذلك ان أجدادنا قاموا بالواجب من خدمة هذه العلوم في
عصر تماسكهم وانسباط ظل دولتهم الا أنه انقطعت سلسلتها بعد القرن السادس
الى منتصف القرن الثالث عشر للهجرة وهي القرون التي كانت فيها الأمة العربية
في غفلة والأمة الغربية في انتباه فأخذ الغرب عن الشرق ما عنده من حضارة ووزاد
عليها أضعافاً ولا يزال يركض طرف عقله في مضمار البحث والاستقراء ويعاني من
ضروب العلم ما نحن فيه معه أجهل من تلميذ مبتدئ بالتهجئة بالنسبة الى عالم
يكتب الكتاب ويقصد القصيد

فالأمة العربية اذا أرادت النهوض العقلي والعلمي يجب عليها ان تأخذ من
كل علم بالسهم الأوفر ولا يتم لها ذلك الا بالنقل عن الأمم الغربية وهذا لا يتأتى
الا بعد أن تخرج مدارسنا الالوف من الطلبة المتعلمين على الاساليب الحديثة
لينشأ لنا منهم عشرات يكونون لنا عوناً على ما ينقصنا من أسباب نهضتنا وما

تشتد حاجتنا اليه . ويكاد ذلك الى الآن يعد مفقوداً بيننا اللهم الا طائفة من أسفار نقلها بعض المولعين بالعربية وما يتيسر للمجلات تعريبه من حين الى آخر من علوم الغرب . وكله دون حد الكفاية بكثير .

قال ابن رشد في فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال : اذا تقرر أنه يجب بالشرع النظر في القياس الفقهي فبين انه ان كان لم يتقدم أحد من قبلنا بفحص عن القياس العقلي وأنواعه انه يجب علينا أن نبتدىء بالفحص عنه وأن يستعين في ذلك المتقدم بالتأخر حتى تكمل المعرفة فانه عسيراً وغير ممكن أن يقف واحد من الناس من تلقاء نفسه وابتداء على جميع ما يحتاج اليه من معرفة أنواع القياس الفقهي بل معرفة القياس العقلي أخرى بذلك وأن كان غير ناقد فخص عن ذلك فبين انه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك وسواء كان ذلك الغير مشاركالنا أو غير مشارك في الملة فان آراءه التي تصحح بها التركية ليس يعتبر في صحة التركية بها كونه آلة لمشارك لنا في الملة أو غير مشارك اذا كانت فيها شروط الصحة وأغنى بغير المشارك من نظر في هذه الاشياء من التقدماء قبل ملة الاسلام

« واذا كان الامر هكذا وكان كل ما يحتاج اليه من النظر في أمر المقاييس العقلية قد فحص عنه التقدماء أتم فحص فنبتدىء أن نضرب بأيدينا الى كتبهم فننظر فيما قالوه من ذلك فان كان كله صواباً قبلنا منهم وان كان فيه ما ليس بصواب نهينا عليه فاذا فرغنا من هذا الجنس من النظر وحصت عندنا الآلات التي بها يقدر على الاعتبار في الموجودات ودلالة الصنعة فيها فان من لا يعرف الصنعة لا يعرف المصنوع ومن لا يعرف المصنوع لا يعرف الصانع فقد يجب أن نشرع في الفحص عن الموجودات على الترتيب والنحو الذي استفدناه من صناعة المعرفة بالمقاييس البرهانية وبين أيضاً أن هذا الغرض انما يتم لنا في الموجودات بتداول الفحص عنها واحداً بعد واحد وأن يستعين في ذلك المتأخر بالمتقدم على مثال ما عرض في علوم التعاليم فانه لو فرضنا صناعة الهندسة في وقتنا هذا معدومة وكذلك صناعة علم الهيئة ورام إنسان واحد من تلقاء نفسه أن يدرك مقادير الاجرام السماوية وأشكالها وأبعاد بعضها عن بعض لما أمكنه ذلك مثل أن يعرف

قدر الشمس من الأرض وغير ذلك من مقادير الكواكب ولو كان أذكى الناس طبعاً إلا بوحي أو شيء يشبه الوحي . بل لو قيل إن الشمس أعظم من الأرض بنحو ١٥٠ ضعفاً أو ستين يمد هذا القول جنونا من قائله .

وهذا شيء قد قام عليه البرهان في علم الهيئة قياماً لا يشك فيه من هو من أصحاب هذا العلم » قال وهذا أمر بين بنفسه ليس في الصنائع العامة فقط وفي العملية فإنه ليس منها صناعة يقدر أن ينشئها واحد بعينه فكيف بصناعة الصنائع وهي الحكمة . وإذا كان هذا فقد يجب علينا أن لقينا لمن تقدمنا من الأمم السالفة نظراً في الموجودات واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر في الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم فما كان منها موافقاً للحق قبلنا منهم وسررنا به وشكرناهم عليه وما كان منها غير موافق للحق نهينا عليه وحذرنا منه وعذرناهم :

هذا ما قاله الفيلسوف الأسلامي في عصر كان العرب أساتذة العلم في العالم وقوله كما رأيت غاية الحكمة وما الغربيون الآن بالنسبة إلينا الا قدماء متقدمون وبهديهم يجب علينا أن نهتدي في العلوم . وهذا لا يقدر فيما خلفه لنا أسلافنا من آثارهم أيام استبحار عمرانهم واتساع سلطانهم . أما اللغات الحديثة التي تشتد حاجتنا الى الأخذ منها فهي الانكليزية والفرنسية والالمانية . وفي كل لغة من هذه اللغات من أنواع المعارف ما لا يكاد يحلم به من لا يعرف لغاتهم . وليت شعري اذا كان بعض أهل الغرب والعلوم قد بلغت عندهم ما علمت من الارتقاء الغريب يتعلمون لغات الشرق لينقلوا منها الى لغاتهم بعض الكتب التاريخية والأدبية والأخلاقية والشرعية ويستعينوا بها على قراءة آثاره وما زبر على أحجاره ألسنا نحن أحرىء بأن نتعلم لغاتهم على مقرنا الثابت ونقتبس منهم ما يعوزنا من علوم البشر ؟

الا أن ما نفاخر به من علم أسلافنا وحضارتهم العظيمة انما قام باحيائهم مدنية من قبلهم من الامم كالروم والفرس وغيرهم ولم يتأت لهم ذلك الا بترجمة علومهم والزيادة عليها وتحسينها فكانوا بذلك أحسن صلة وعائد بين أمم الحضارة السالفة والامم الأوروبية الخالفة . فحضارة الاسلام إذا أنصفنا قامت بفضل

التراجم والنقطة من المعاقبة والاسرائيليين والمسلمين لا يابدي علماء الكلام مثلاً . وقد كان على يد هؤلاء التشتيت وعلى يد أولئك الجمع . وشتان بين المفرق والجمع . وليس معنى هذا انكار فضل من تمحضوا لخدمة الشريعة واللغة في القرون الاولى للاسلام وما في الناظرين من يقول بان الخليل والجاحظ والغزالي والماوردي هم في حسن بلاغهم في خدمة هذه الأمة دون أبي الريحان البيروني ونصير الدين الطوسي وحنين بن اسحق وثابت بن قررة . وما كان قط أهل الفريق الاول يحتقرون علم الفريق الثاني ولا العكس لما وقر في النفوس من أن المجتمع لا يقوم على أمتن الدعائم الا اذا أتقن كل ذي علم عمله

قال الجاحظ : الانسان وان أضيف الى الكمال وعرف بالبلاغة وناقش العلماء فانه لا يمكن أن يحيط علمه بكل ما في جناح بموضة أيام الدنيا ولو استمد بكل نظار عظيم واستعان بكل بحاث واع وكل نقاب في البلاد ودارسة تلك الكتب . وما أشك ان عند الوزراء في ذلك ما ليس عند الرعية من العلماء وعند الخلفاء ما ليس عند الوزراء ، وعند الانبياء ما ليس عند الخلفاء ، وعند الملائكة ما ليس عند الانبياء ، وما عند الله عز وجل أكثر ، والخلق في بلوغه أعجز ، وانما علم الله كل طبقة من خلقه بقدر احتمال فطرتهم ومقدار عقلهم .

وقال الراغب الاصفهاني في الدررمة : العلم طريق الله تعالى ذو منازل قد وكل الله تعالى بكل منزلة منها حفظة كحفظة الرباطات والشغور في طريق الحج والغزو ضمن منازل معرفة اللغة التي علمها بنى الشرع ثم حفظ كلام رب العزة ثم سماع الحديث ثم الفقه ثم علم الاخلاق والورع ثم علم المعاملات وما بين ذلك من الوسائل ومعرفة أصول البراهين والادلة ولهذا قال (هم درجات عند الله) وقال (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أتوا العلم درجات) وكل واحد من هؤلاء الحفظة اذا عرف مقدار نفسه ومنزلته في حق ما هو بصدد فهمه في جهاد يستوجب من الله أن يحفظ مكانه ثواباً على قدر علمه لكن قلما ينفك كل منزل منها من شرب في ذاته ، وشربه في مكسبه ، وطالب لرياسته ، وجاهل معجب بنفسه ، بصير لاجل تنفيق سلطته ، صارفاً عن المنزل الذي فوق منزلته من العلم ، وعاتباً له ، فلماذا ترى كثيراً ممن حصل في منزلة من منازل العلم دون الغاية هائباً لما فوقه ،

وصارفا عن رايه فان قدر أن يصرف عنه الناس إشبهة مزخرفة فعل أو ينفر الناس فعل اه .

وان ما في عبارة هذين الخبرين ليذكر بما يجب للمجتمع من مراعاة مبدأ التعاون والتكافل الاجتماعي وقد قال أحد كبار شيوخ العلم من المعاصرين إن مما يؤخر الشرق في العلم عدم مراعاة أبنائه لمبدأ التعاون والتكافل الاجتماعي ففيه من يحسن التفصيل كما فيه من يحسن الخياطة وليس بينهما من يضم أعمال الفئة الاولى للثانية لينتفع بها المجتمع حق الانتفاع ومثل لذلك بمن نقلوا لنا العلوم على عهد الحضارة الاسلامية الاولى فقال : انه كان يندر أن يجمع المترجم بين معرفة العلم الذي يترجمه واللغتين اللتين ينقل منهما واليهما فمن كان يجيد السريانية لا يحسن العربية الا انه كان يترجم ما يفهم به عبارة ركيكة أو عامية فيجىء المصححون يصلحون العبارة على الاسلوب العربي فتجىء معرفتهم من أصح ما يكون لفظاً ومعنى وعلى هذا درج ديوان الترجمة في الدولة العسوية الخديوية في القرن الثالث عشر في مصر فكان المترجم غير المصحح ولذلك جاء فيما نقلوه روح العربية أكثر من المصنفات التي نقلت الى العربية حتى في هذا القرن قال وهكذا عرفت دولة المباسيين في بغداد والامويين في الأندلس والاسرة العلوية في القاهرة أن تجمع بين من يحسن التفصيل ويحسن الخياطة فكان من هذا الجمع ما كان كما حسن النفع من كل ما تصرف تحت اسم علم .

الحافظة والحفاظ (١)

أى نعمة يناها المرء أعظم من أن تعي ذاكرته كل ما يريد وعيه ، وتدخره الى ساعة الحاجة للانتفاع به . الحافظة من العوامل المؤثرة في ترقية الافراد والجماعات ، وبدونها يصعب الوصول الى إدراك الحقائق وتمحيصها ، لانا اذا لم نستعن في كل مطلب من مطالب الحياة بتجارب من سبقونا ، ونحفظ المأثور عنهم لننسج على منواله ، كننا أشبه بمن يريد أن يبني له كل يوم بناء ، وظلت العلوم

والصناعات والآداب في طفولتها الأولى تجرى على نظام مضطرب ، اذ يكون كل امرئ وما يختار

والذاكرة أو الحافظة حاسة يحفظ بها الذهن على صورة دائمة أموراً مضت وتأثرات وقعت فهي بذلك كما قال مونتين الفياسوف (١٥٩٢ م) وعاء العلم وصوان الحكمة . وقال لاروشفو كولد الكاتب (١٦٨٠) جميع الناس يشكون من حافظتهم وما شكوا قط أحد من عقله . قال آخر : ان الذكاء بدون حافظة أشبه بفربال لا يكاد يمسك ما تضعه فيه . وقال أحدهم . الحافظة واسطة من وسائل الكمال وبدونها لا يستطيع امرؤ أن يقلد شيئاً وينسج على منواله . وقال كورنيل الشاعر : يجب لمن يتعمد الكذب أن يكون ذا ذاكرة جيدة . وهذا مثل قولهم اذا كنت كذوباً فكن ذكوراً . وقال بيكته الأديب السويسرى (١٨٧٥) : لقد كان للحافظة شأن مهم جداً عند الناس في العصور الأولى أكثر مما صار لها في القرون اللاحقة . كانت الحافظة قبل اختراع الكتابة هي التي تتولى خاصة نقل التقاليد الوطنية والدينية وعامة القوانين والعادات والشعر ولذلك كانت هذه الحاسة التي قلما نحفل الآن بأمرها عند قدماء الآريين مشابهة للفكر نفسه

اختلف مذهب الفلاسفة فيما اذا كانت الحافظة حاسة قائمة بذاتها ، أو فيما اذا كان لكل حاسة فينا ذاكرة معينة ، ومعظم الحكماء وعلماء النفس على ان الحافظة حاسة مستقلة عن بقية حواس الانسان ، ولا يكاد أحد يدرك كيف تعي الحافظة الأرقام والأعداد ، وتحفظ العبارات والمفردات . وتحكم اللغات واللهجات وتردد الألحان والأصوات . ويقول علماء النفس . إن الشروط النفسية اللازمة لجودة الذهن متوقفة على جودة تركيب أنسجة الدماغ وحسن تغذية هذه الأنسجة . والتعب والشيخوخة من العوامل المؤثرة في ضعف الحافظة لأنهما ملازمان لضعف تغذية الأنسجة . ولذلك قالوا إن درجة الحافظة لا تختلف بحسب الأشخاص بل تختلف في الشخص الواحد في أدوار مختلفة من حياته ، واذا صرفنا النظر عن الآفات العضوية التي تضربها فان هناك أيضاً أحوالاً أقل منها تزيدها ضعفاً الى ضعفها مثل اضطرابات المعدة وسوء الهضم والشقيقة ، فان

جميع هذه العوارض على الجسم يغيرها تغييراً محسوساً
ولتركيب الدماغ وحالته تأثير ظاهر في الحافظة فقد ذكر بلين الطبيعي
الروماني أن رجلاً نسي حتى رسائله بعد أن أصيب بشجة في رأسه . وزعم
البابا كليمان السادس أن حافظته قويت قوة عجيبة عقب أن أصيب برضة شديدة
في دماغه . وكيفما كانت الحال فللتمرين يد طولى في تخصيص الحافظة بشيء
معين فالممثلون تقوى فيهم الملكة الحافظة الشفاهية وهي من اللوازم لهم في
صناعتهم ورجال الشرطة تقوى فيهم الحافظة في تذكر صور الأشخاص وليس
البشر كلهم سواء في الحفظ والاستظهار ، فمنهم من يحتفظون الأشكال الهندسية
وهم الذين خلقوا رياضيين بالنظرة وسنهم من يرزقون حافظة قوية في الانعام
كالموسيقين وغيرهم في غير ذلك . ومن الناس من يذكرون الكلمات بسرعة غريبة
ومن الأطفال من تقرأ لهم بصوت عال عدة صفحات فيستظهِرونها في الحان ويتلوها
على مسامعك لأول مرة . وتذكر الالفاظ خاصة يمتاز بها الاولاد في العادة أكثر
من الكبار في السن فمن لا تكون قويت فيهم حاسة التفكير فيحفظون الكلمات
التي يسمعونها على أيسر وجه بدون أن يفهموها . والسبب في سهولة الحفظ عليهم
فقدان قوة التفكير فيهم ، وعند ما يبدأ التفكير في معظم الناس تضعف الحافظة
فيهم وقد تزول من بعضهم . والحافظة الشفاهية اذا كانت هي وحدها في الانسان
لا تكون له سبيلاً الى التفكير ومن فقد الاولى فلا يأسف لحاله لانه يستطيع بقوة
التفكير ان يأتي بالجيد من الافكار ولكن الحافظة وحدها قد تكون من أكبر
العوائق عن جودة التصور

وبعد فان للحافظة شأنًا عظيمًا في ترقية الفكر الانساني وبدونها يكون كل
شيء عقيمًا لا ثمرة له ، لأنها واسطة لبقاء الافكار التي صدرت ، وأحسن ذريعة
للحصول على أفكار جديدة ولم يعرف القانون الذي تسير عليه كما أن جوهرها
لم يدرك الباحثون حقيقته وغاية ما عرف من أمرها أنها تقوى بالانتباه والتمرن
كما تقدم ، وان الكسل ابن الترف والكسل يجرح الحافظة ان لم نقل يقتلها

ذكر التاريخ كثيرين من أرباب الحافظة النادرة فمنهم في القديم مثيريداس
الكبير ملك شمالى غربى آسيا الصغرى (١٢٣ - ٦٣ ق . م) فقد كان يحكم على

اثنين وعشرين أمة مختلفة ويخطب امام كل منها بلغتها ويدعو كل واحد من جنده باسمه . وذكروا مثل ذلك عن قورش ملك الفرس وتيموستقلس وسيدميون الآسيوي والامبراطور ادریان ويقال ان مزية الحافظة هيأت لآوتون الروماني تولى الملك . وتعلم تيموستقلس اللغة الفارسية في سنة

وكان ليبس اللغوي الأديب البلجيكي (١٦٠٦) يحفظ تاريخ تاسيت المؤرخ اللاتيني بألفاظه حرفاً بحرف وقد قال انه يرضى أن يقف جلاد وييده سيف على رأسه وهو يتلو هذا التاريخ فاذا أدخل بحرف واحد يضرب عنقه

وكان لرينودي بون حافظة سعيدة يذكر جميع الابيات اللاتينية واليونانية التي قرأها في صباه ويتلو صفحات برمتها من ديوان هو ميروس وان كان مضى عليه أربعون سنة وهو لم ينظر فيه نظرة واحدة . وكان هودج دونو الفقيه المشهور في القرن السادس يستظهر القوانين المعروفة في عصره بالحرف الواحد . وحفظ يوسف سكاليجه الأديب (١٦٠٩) الألياذة والأوديسية في واحد وعشرين يوماً . ومن أطف مايروي في باب الحافظة ان أحد الفلاحين في فرنسا جاء الى باريز يقصد صاحباً قديماً له كان استلف منه خمسة فرنكات منذ خمس عشرة سنة وطلب اليه ان ينقده ماله قبله فتركه صاحبه وعاد فدفع اليه ليرة واحدة وخمسة فرنكات وقال له : هذا يا صاح فقد كنت نلت وأنا في المدرسة ليرة جائزة على حافظتي فرأيتك أحد منى ذاكرة وانك أحق بهذه الجائزة منى

* * *

ليس في الدنيا خير محض ، فقد اخترعت الطباعة منذ نحو خمسمائة سنة فعم تقمها أهل الارض كافة ، ولكن ما عتمت ان نتج عنها بعض شر اذا أصبح الناس يعتمدون على الكتب في جماع علومهم وآدابهم ، بعد ان كان جل اعتمادهم على محفوظاتهم ومخطوطاتهم . والغالب ان الاعتماد على الحافظة والحفاظ كان في الاسلام على أشده قبل تدوين الكتب وتأليف الرسائل والمصنفات ، ولما بلغ بعض الأئمة تدوين الكتب اسفوا وعدوه من دواعي تهقير العلم ، وانقطع سند الرواية ، وما زالت الحال ترتقي بعض الشيء في بعض الاعوام ثم يزهد في الحفظ حتى انتشرت الطباعة في بلادنا بانتشار الصناعات الفكرية ، فأسمى الناس يستندون

الى السطور بدل الصدور ، والقراطيس والاسفار بدل الحفظ والاستظهار .
فضممت بهذا الضعف الحافظة ، وان قويت المفكرة ، وقلت الرواية ، وان لم
تقل الدراية .

انقطع سند الحفظ الا في بعض ما لا يسع الأمة جهله من القرآن وعلومه
فأخذ بعضهم يفتاتون على من عرفوا قديماً بأسمه محفوظهم ، ويزيفون ولكن بدون
برهان مارواه طائفة الراوين من أنباء الأذكياء الحافظين . ولو صح الاعتماد على
القاء الكلام على عواهنه في هذا الباب اذا لسقط التاريخ وارتفعت الثقة من كل
خبر حتى من مجيء الرسل وحروب الملوك ودثور الشعوب والمدن وما اليها . وما
أشبهه من يكذب بادىء الرأي بلا دليل قاطع بمن يثر الهدم على البناء . وشتان
بين الحرب والمعمر ، والملف والمخلف ، والمفسد والمصلح .

* * *

ما عنيت أمة بتدوين دينها وحفظه ولغتها وضوابطها عناية المسامحين بدينهم
ولغتهم فكان من أمر حفظة الكتاب العزيز ما اشتهر في كل مصر وعصر ولا يزال
في البلاد اثر من آثار تلك العناية . اما الأحاديث فقد عنوا بها قديماً وجمعوا
أشتماتها ، وبينوا صالحها من موضوعها . وضمينها من قوتها ، مما يدركه كل من كانه
المام بالمرجمة ونظر في كتب القوم . لم يكن العلم في القرون الأولى للاسلام بالارث
ولا بالمظاهر ولا بالوساطات والشفاعات بل كان بالاستحقات وكذا القرائح يسير
على قرائين بتيود وروابط ولذلك لم يكن ينال لقب حافظ من لم يحفظ ألوفاً من
الأحاديث بأسانيدها فقد كانوا يطلقون اسم المسند على من يروى الحديث
بأسناده سواء كان عنده علم به أو ليس له الا مجرد رواية ويطلقون اسم المحدث
على من كان أرفع منه والعالم على من يعلم المتن والأسناد جميعاً والفقير على من
يعرف المتن ولا يعرف الاسناد والحافظ على من يعرف الاسناد ولا يعرف المتن
والراوى على من يعرف المتن ولا يعرف الاسناد . وكان السلف يطلقون المحدث
والحافظ بمعنى . والمحدث من عرف الاسانيد والعمل وأسماء الرجال والعالي والنازل
وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتون وسمع الكتب الستة ومسند أحمد
ابن حنبل وسنن البيهقي ومعجم الطبراني وضم الى هذا القدر الف جزء عن الاجزاء

الحديثة، هذا أقل درجاته، فإذا سمع ما ذكر وكتب الطباقي ودار على الشيوخ وتكلم في العمل والوفيات والمسائيد كان في أول درجات المحدثين . وكان السلف يستمعون فيقرؤن فيرحلون فيفسرون ويحفظون فيمماون قال بعضهم

ان الذي يروي ولكنه مجهل ما يروي وما يكتب

كصخرة تنبع أمواها تسقى الاراضى وهى لا تشرب

سأل تقي الدين السبكي الحافظ جمال الدين المزني عن حد الحفظ الذي اذا انتهى اليه الرجل جاز له أن يطلق عليه الحافظ قال : يرجع الى أهل العرف فقلت وأين أهل العرف قليل جداً قال : أقل ما يكون أن يكون الرجال الذين يعرفهم ويعرف تراجمهم وأحوالهم وبلدانهم أكثر من الذين لا يعرفهم ليكون الحكم للغالب فقلت له : هذا عزيز في هذا الزمان أدركت أنت أحداً كذلك فقال : ما رأينا مثل الشيخ شرف الدين الدمياطي ثم قال : وابن دقيق العيد كان له في هذا مشاركة جيدة . قال فتح الدين بن سيد الناس وأما المحدث في عصرنا فهو من اشتغل في الحديث رواية ودراسة وجمع رواية واطلع على كثير من الرواة والروايات في عصره وتميز في ذلك حتى عرف فيه خطه واشتهر فيه ضبطه فان توسع في ذلك حتى عرف شيوخه وشيخ شيوخه طبقة بعد طبقة بحيث يكون ما يعرفه من علل طبقاته أكثر مما يجمله منها فهذا هو الحافظ وأما ما يحكى عن بعض المتقدمين من قولهم كنا لا نعد صاحب حديث من لم يكتب عشرين الف حديث من الاملاء فذلك بحسب أزمنتهم .

وقال أبو ذرعة الرازي : كان أحمد بن حنبل يحفظ الف الف حديث قيل له وما يدريك قال : ذاكرته فاخذت عليه الأبواب . وقال البخاري . احفظ مائة الف حديث صحيح ومائتي الف حديث غير صحيح . وقال الحاكم في المدخل كان الواحد من الحفاظ يحفظ خمسمائة الف حديث : سمعت أبا عبد الله بن وارة يقول كنت عند اسحق بن ابراهيم بنيسابور فقال رجل من أهل العراق : سمعت احمد بن حنبل يقول صحح من الحديث سبعمائة الف وكسر وهذا الفقى يعنى أبا زرعة قد حفظ سبعمائة الف حديث قال البيهقي : أراد ما صح من الاحاديث وأقوال الصحابة والتابعين وقال غيره : سئل أبو زرعة عن رجل حلف بالطلاق

أن أبا زرعة يحفظ مائتي الف حديث هل يحث قال لا . ثم قال أحفظ مائة الف
حديث كما يحفظ الانسان سرورة قل هو الله أحد وفي المذاكرة ثلثمائة الف حديث
وقال أبو بكر محمد بن عمر الرازي الحافظ : كان أبو زرعة يحفظ سبعمائة الف
حديث وكان يحفظ مائة وأربعين ألفاً في التفسير والقرآن : وكان اسحق بن
راهويه يعلی سبعين الف حديث حفظاً وأسند بن عدي عن بن شبرمة عن الشعبي
قال : ما كتبت سواداً في بيضاء الى يومى هذا ولا حدثني رجل بحديث قط إلا
حفظته فحدثت بهذا الحديث اسحق بن راهوية فقال : تعجب من هذا قلت نعم
قال ، ما كنت لأسمع شيئاً إلا حفظته وكأني أنظر الى سبعين الف حديث أو
قال أكثر من سبعين الف حديث في كتيبي . وأسند عن أبي داود الخفاف قال
سمعت اسحق بن راهوية يقول : كأني أنظر الى مائة الف حديث في كتيبي
وثلاثين ألفاً أسردها : وأسند الخطيب عن محمد بن يحيى بن خالد قال . سمعت
اسحق بن راهويه يقول : أعرف مكان مائة الف حديث كأني أنظر اليها وأحفظ
سبعين ألف حديث عن ظهر قلبي وأحفظ أربعة آلاف ضرورة وقال عبد الله
ابن احمد بن حنبل قال أبي لداود بن عمرو الضبي وأنا أسمع : كان يحدثكم اسماعيل
ابن عباس هذه الاحاديث بحفظه قال : نعم ما رأيت معه كتاباً قط قال له : لقد
كان حافظاً كم كان يحفظ قال شيئاً كثيراً قال : أ كان يحفظ عشرة آلاف قال
عشرة آلاف وعشرة آلاف وعشرة آلاف فقد كان أبي هذا كان مثل وكيع .
وقال يزيد بن هرون أحفظ خمسة وعشرين الف حديث وقال الآجري : كان
عبد الله بن معاذ العبدي يحفظ عشرة آلاف حديث

قال السبكي لم تر عيناي أحفظ من أبي الحجاج المزني وأبي عبد الله الذهبي
والوالد وغالب ظني ان المزني يفوقهما في العليل والمتون والجرح والتعديل مع
مشاركة كل منهم لصاحبه فيما يتميز به عليه المشاركة البالغة سمعت شيخنا الذهبي
يقول ما رأيت أحداً في هذا الشأن أحفظ من الامام أبي الحجاج المزني وبلغني
عنه انه قال ما رأيت أحفظ من أربعة : ابن دقيق العيد والدمياطي وابن تيمية
والمزني فالاول أعرفهم بالعلل وفقه الحديث والثاني بالانساب والثالث بالمتون
والرابع باسماء الرجال . وكان الدمياطي يقول : ما رأى شيخنا أحفظ من زكي

الدين عبد العظيم وما رأى الزكي أحفظ من أبي الحسن علي بن المفضل ولا رأى ابن المفضل أحفظ من الحافظ عبد الغني ولا رأى عبد الغني أحفظ من أبي موسى المدني إلا أن يكون الحافظ أبا القاسم بن عساكر ولا رأى بن عساكر والمدني أحفظ من أبي القاسم السماعيل بن محمد التيمي ولا رأى السماعيل أحفظ من أبي الفاضل محمد بن طاهر المقدسي ولا رأى ابن طاهر أحفظ من أبي نصر بن ماكول ولا رأى ابن ماكول أحفظ من أبي بكر الخطيب ولا رأى الخطيب أحفظ من أبي نعم وأبو نعم ما رأى أحفظ من الدارقطني وأبي عبد الله بن منده ومعها الحاكم وكان ابن منده يقول ، ما رأيت أحفظ من أبي اسحق بن حمزة الأصماني وقال بن حمزة : ما رأيت أحفظ من أبي جعفر احمد بن يحيى بن زهير الشقيري وقال ما رأيت أحفظ من أبي زرعة الرازي وأما الدارقطني فما رأى أحفظ من نفسه وأما الحاكم فما رأى أحفظ من الدارقطني بل وكان يقول الحاكم ما رأيت أحفظ من أبي علي النيسابوري ومن أبي بكر ابن الجعابي وما رأى الثلاثة أحفظ من أبي العباس بن عقدة ولا رأى أبو علي النيسابوري مثل النسائي ولا رأى النسائي مثل اسحق ابن راهوية ولا رأى أبو زرعة مثل أبي بكر بن أبي شيبة وما رأى أبو علي النيسابوري مثل بن خزيمة وما رأى بن خزيمة مثل أبي عبد الله البخاري ولا رأى البخاري فيما ذكر مثل علي بن المدني أولاً رأى أيضاً أبو زرعة والبخاري وأبو حاتم وأبو داود مثل احمد بن حنبل ولا مثل يحيى بن معين وابن راهوية ولا رأى احمد ورفاهه مثل يحيى بن سعيد القطان ولا رأى هو مثل سفيان ومالك وشعبة ولا رأوا مثل أيوب السخيتاني نعم ولا رأى مالك مثل الزهري ولا رأى الزهري مثل أبي المسيب ولا رأى بن المسيب أحفظ من أبي هريرة ولا رأى أيوب مثل بن سيرين ولا رأى مثل أبي هريرة نعم ولا رأى الثوري مثل منصور ولا رأى منصور مثل ابراهيم ولا رأى ابراهيم مثل علقمة كابن مسعود

هذا كان مبلغ القوم في حفظ الحديث وروايته على كثرة التشابه فيه وتوفر الاسانيد والرواة بحيث لو ارد أحد لهذا العهد أن يحفظ شيئاً مما كانوا يحفظونه لاختار استظهار اللغة الصينية واستسهلها أكثر وذلك لضعف الحافظة من هذا المعنى وانقطاع سند هذه العلوم الجليلة الا قليلاً

كان الحافظ أبو عامر محمد بن سمدون من أعيان حفاظ الاسلام قال ابن عساكر انه أحفظ شيخ لقيه وشيوخ بن عساكر زهاء الف ومائتي شيخ وكان الفقيه أعلم الدين القمى يحفظ ما سمعه من مرة واحدة . وكان الشافعي من أحفظ أهل دهره قضى عشرين سنة في تعلم الادب والتاريخ وقال ما أردت بهذا الا الاستماعة على الفقه : ويروى أنه نظر في كتاب لابن حنيفة فما كان من الفدا الا أن غدا راوياله مستظهماً إياه بجملته . وابن دريد صاحب المقصورة من علماء اللغة كان آية من آيات الله في انساع صدره للرواية تقرأ عليه دواوين العرب فيسارع الى إملائها من محفوظه . وقيل ان أحمد بن حنبل امام المحدثين كان يحفظ ألف ألف حديث . قال سميد بن جبير من أعلام التابعين قرأت القرآن في ركعة في البيت الحرام وقال اسمعيل بن عبد الملك كان سعيد بن جبير يؤمنا في شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود وليلة بقراءة زيد بن ثابت وليلة بقراءة غيره هكذا أبداً ولا عجب وهو الذي قال فيه احمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيد ابن جبير وما على وجه الارض أحد الا وهو مفتقر الى عامه

وكان علي الرازي يقول من فهم هذا الكتاب (يعني الجامع الصغير لمحمد) فهو من أصحابنا ومن حفظه كان أحفظ أصحابنا وان المتقدمين من مشايخنا كانوا لا يقلدون أحداً القضاء حتى يتحنوه فان حفظه قلده القضاء ولا أمره بالحفظ . وذكر صاحب نبيح الطيب انه كان خارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منبر وفقه مقلص تكون الفتيا في الاحكام والشرائع له وكان لا يجعل القاص منهم على رأسه الا من حفظ الموطأ وقيل من حفظ عشرة آلاف حديث والمدونة وكان بديع الزمان الهمداني يحفظ خمسين بيتاً بسمع واحد ويؤديها من أولها الى آخرها وينظر في كتاب نظراً خفيفاً ويحفظ أوراقاً ويؤديها من أولها الى آخرها وينظر في الاربعة والخمسة الاوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهدها عن ظهر قلبه هذا ويسردها سرداً وهذا حاله في الكتب الواردة وغيرها . وكان أبو ريش أحمد بن ابراهيم من رواة الأدب يحفظ خمسة آلاف ورقة لغة وعشرين ألف بيت شعر الا أن أبا محمد المافروخي بذ عليه لأنها اجتمعا أول ما تشاهدا بالبصرة فتذاكرا أشعار الجاهلية وكان أبو محمد يذكر القصيدة

فيأتي أبو ريش على عيونها فيقول أبو محمد إلا أن تهـنـدها من أولها الى آخرها
فينشد معه ويتناشدان الى آخرها ثم أتى أبو محمد بمدة قصائد لم يتمكن أبو ريش
ان يأتي بها الى آخرها وفعل ذلك في أكثر من مائة قصيدة حدثني بذلك من
حضر ذلك المجلس معها - قاله ياقوت في معجم الأدباء .

وكان الحفظ في كل فن شائعاً بين أهل الأدب وطلاب العلم على اختلاف
ضروبه عند العرب على نحو ما يتضح من تصفح سير رجالهم ولو لم يكن استناد
المؤلفين في الاغلب الا على ما في لوح محفوظهم لما تيسر لهم أن يؤلف أحدهم
عشرات من المجلدات يعجز العالم اليوم عن نسخها بل عن تصفحها

فقد كان العرب قبل البعثة يروون قصائد شعرائهم وأغاني حداثهم كما يؤخذ
من اجتماعاتهم في سوق عكاظ ومرصد البصرة ولم تكن بضاعتهم من ذلك كثيرة
لأن أمراء الكلام لم ينبغوا الا في الاسلام بظهور نور النبوة وفصاحة الكتاب
العزيز . ولقد كان الراوية والنسابة ينشد عشرات بل مئات من القصائد كما يحفظ
أحدنا لهذا العهد الايات القليلة غير متعلم ولا متردد . خذ مثالا لذلك حماد
الرواية المتوفى سنة ١٥٥ فقد كان على قلة بضاعته من العربية يروي المئات من
القصائد للجاهليين والمخضرمين كما يروي فاتحة الكتاب ويذكر أشعار العرب وأيامهم
وأنسابهم ولغاتهم كأنه يروي قصة وكان ملوك بني أمية يرجعون اليه في هذا المعنى
ويحلونه منزلة عالية من التجارة والاكرام روى الوليد بن يزيد الاموي قال له يوماً
وقد حضر مجلسه : بم استحققت هذا الاسم فقيل لك الراوية فقال : بأني أروي
لكل شاعر تعرفه يأمر المؤمنين أو سمعت به ثم أروي لا أكثر منهم ممن تعرف
انك لا تعرفه ولا سمعت به ثم لا ينشدني أحد شعراً قديماً ولا محدثاً الا ميزت القديم
من المحدث فقال : ثم فكم مقدار ما تحفظ من الشعر قال : كثير ولكني أنشدك
على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر
الجاهلية دون شعر الاسلام قال : سأمتحنك في هذا ثم أمره بالانشاد فأنشدني
ضجر الوليد ثم وكل به من استخلفه ان يصدقه عنه ويستوفى عليه فأنشده
الفين وتسمائة قصيدة للجاهلية وأخبر الوليد بذلك فأمر له بمائة ألف درهم
ونواده كثيرة

وكان الأصمعي المتوفى سنة ٢١٨ أو قبلها صاحب لغة ونحو وإماماً في أخبار العرب وملصهم وغيرهم قال عمر بن شبة سمعت الأصمعي يقول . احفظا ستة عشر الف أرجوزة وقال اسحق الموصلي : لم أر الأصمعي يدعي شيئاً من العلم فيكون أعلم به منه وحضر يوماً عند الفضل بن الربيع هو وأبو عبيدة معمر بن المثنى فقال له كم كتابك في الخيل فقال الأصمعي مجلد واحد فسأل أبو عبيدة عن كتابه فقال خمسون مجلدة فقال له : قم إلى هذا الفرس وامسك عضواً عضواً منه وسمه فقال . لست بيطاراً وإنما هذا شيء أخذته عن العرب فقال للأصمعي قم وافعل أنت ذلك فقام الأصمعي وأمسك ناصيته وشرع يذكر عضواً عضواً ويضع يده عليه وأنشد ما قالت العرب فيه إلى أن فرغ منه قال أبو حمدون الطيب ابن اسماعيل شهد ابن أبي العتاهية وقد كتب عن أبي محمد اليزيدي قريباً من الف مجلد عن أبي عمر بن الملاء خاصة ويكون ذلك نحو عشرة آلاف ورقة لأن تقدير المجلد عشر ورقات

قال أبو نواس . ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهم الخنساء وليلى فما ظنك بالرجال . قلت ولذلك جاء شعر أبي نواس أحسن شعر المولدين كما شهد له بذلك أصحاب الشأن في هذه الصناعة وفي مقدمتهم الجاحظ الذي فضل شعره على شعر العرب العرباء قال اسماعيل بن نوبخت ما رأيت قط أوسع علماً من أبي نواس ولا أحفظ منه مع قلة كتبه ولقد فتشنا منزله بعد موته فما وجدنا فيه إلا قطراً فيه جزار مشتمل على غريب ونحو

قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب دخل أبو عمرو اسحق بن مراد الشيباني البادية ومعه وستيجتان من حبر فما خرج حتى افناهما بكتب سماعه عن العرب وكان أبو عمرو عالماً بايام العرب جامعاً لأشعارها ويروي عن عمرو بن أبي عمرو قال لما جمع أبي أشعار العرب كانت نيفاً وثمانين قبيلة وكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها إلى الناس كتب مصحفاً بخطه ويحكى أنه أخذ عن المفضل الضبي دواوين العرب وسمها منه أبو حيان وابنه عمرو بن أبي عمرو الشيباني من العلم والسماع أضعاف ما كان مع أبي عبيدة ولم يكن من أهل البصرة مثل أبي عبيدة في السماع والعلم قال سلعة . أملى القراء كتبه كلها حفظاً لم يأخذ بيده

نسخة الا في كتابين ومقدار كتب الفراء ثلاثة آلاف ورقة وكان مقدار
الكتابين خمسين ورقة . ويقال ان الاصمعي كان يحفظ ثلث اللغة وكان الخليل
يحفظ نصف اللغة وكان أبو فيد يحفظ الثلثين وكان ابو مالك يحفظ اللغة كلها
وكان الغالب على أبي مالك حفظ الغريب والنوادر . وكان ابن الاعرابي أحفظ
الناس للغات والايام والانساب وقال ابو العباس احمد بن يحيى ثعلب : قال لي ابن
الاعرابي . أملت قبل أن تجيئني يا أحمد حمل حمل وقال ثعلب : انتهى علم اللغة
والحفظ الي ابن الاعرابي وقال ثعلب سمعت ابن الاعرابي يقول في كلمة رواها
الاصمعي سمعت من الف اعرابي خلاف ما قاله الاصمعي .

وكان قتادة عالماً نحريراً وأجمع الناس لاشعار العرب وأنسابهم قال ابو عبيدة
ما كنا نفقد كل يوم راكباً من ناحية بنى أمية ينسخ على باب قتادة فيسأله عن
خبر أو نسب أو شعر وكان من أنسب الناس . وكان ابن السكبي النسابة واسم
الرواية ومن أعلم الناس بالنسب وكان من الحفاظ المشاهير قال : حفظت ما لم يحفظه
أحد ولسيت ما لم ينسه أحد كان لي عم يعاتني على حفظ القرآن فدخلت بيتاً
وحلفت ان لا أخرج منه حتى أحفظ القرآن حفظته في ثلاثة أيام وتصانيفه تزيد
على مائة وخمسين تصنيفاً وتوفي سنة ٢٠٤

وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارهم
وأشعارهم قال الجاحظ لم يكن في الارض خارجي ولا جماعي اعلم بجميع العلوم
منه ومع انه كان يلحن ويخطيء اذا قرأ القرآن واذا انشد بيتاً لا يقيم وزنه واذا
تحدث او قرأ لحن اعتماداً منه لذلك فقد صنف قرابة مائة مصنف وكان يري رأي
الحوارج ولذلك كثير الطاعنون في نسبه ومشربه ومذهبه وتوفي سنة ٢٠٩

كان أبو المحاسن الرؤباني المتوفي سنة ٥٠٢ من رؤوس الافاضل في أيامه
يقول : لو احترقت كتب الشافعي لأملت منها من خاطري . وقال ابو بكر النحوي لما
قدم الحسن بن سهل العراق قال : أحب ان أجمع قوماً من أهل الادب فأحضر أبا
عبيدة والاصمعي ولهر بن علي الجهضمي وحضرت معهم وأفضنا مرة في ذكر
الحفاظ فذكرنا الزهري وفتادة ومررنا فالتفت أبو عبيدة فقال : ما الغرض أيها

الامير في ذكر من مضى وبالخضرة ههنا من يقول ماقرأ كتاباً قطعاً فاحتاج الى أن يعور فيه ولا دخل قلبه شيء فخرج عنه فالتفت الاصمعي وقال انما يريدني بهذا القول أيها الامير والامر في ذلك على ما حكى وأنا أقرب اليك قد نظر الامير فيما نظر فيه من الرقاع - وكان نظر قبل أن يلتفت اليهم في رقاع بين يديه للناس في حاجاتهم فوقع عليها فكانت خمسين رقعة - وأنا أعيد ما فيها وما وقع به الامير على رقعة رقعة قال فأمر وأحضرت الرقاع . قال الاصمعي سأل صاحب الرقعة الاولى كذا واسمه كذا فوقع له بكذا والرقعة الثانية والثالثة حتى مر في نيف وأربعين رقعة فالتفت اليه نصر بن علي فقال أيها الرجل ابق على نفسك من العين فكف الاصمعي .

ومالي وتعداد الاسماء على هذا النحو فكتب القوم طائفة بها وانما يكفي منها التمثيل والقليل يغني . ولتأمل ان هذا القدر من الحفظ كان بعضه شائعاً في القرنين الاولين والقرون الثلاثة وقد بالغ فيه الرواة حتى اتصل بنا على هذه الصورة وما حجتي في نقض هذا الا وقوع أمثال أمثاله في كتب أهل القرون المتأخرة مما تواطأ الثقات على نقله وتحرزوا في اثباته . ولقد كان الغرب في هذه المزية كالشرق اذ قد حذا الماربة في حضارتهم وعلومهم حذو المشاركة . فقد كان ابن عبدون أحد شعراء الاندلس وكتابتها مستكثراً من الحفظ قال الوزير أبو بكر بن زهر : بينا أنا قاعد في دهليز دارنا وعندى رجل شيخ أمرته أن يكتب لي كتاب الاغانى فجاء الناسخ بالكراريس التي كتبها فقلت له : أين الأصل الذي كتبت عنه لا قابل معك به قال : ما أتيت به معني فبينما أنا معه في ذلك اذ دخل رجل بذ الهيئة عليه ثياب غليظة أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لاؤها من غير اتقان وقال لي : يابى استأذن لي على الوزير أبي مروان فقلت له : هو نائم . هذا بعد ان تكلفت جوابه غاية التكلف حملتني على ذلك نزوة الصبا وما رأيت من خشونة هيئة الرجل ثم سكت عني ساعة وقال : ما هذا الكتاب الذي بأيديكما فقلت له : ما سؤالك عنه فقال : أحب أن أعرف اسمه فاني كنت أعرف اسماء الكتب فقلت : هو كتاب الاغانى فقال : الى أين بلغ الكاتب منه قلت : بلغ موضع كذا وجعات أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على

قال به فقال : وما لكاتبك لا يكتب قلت : طلبت منه الاصل الذي يكتب منه
لأعارض به هذه الأوراق فقال : لم أجد به معنى فقال : يا بني خذ كراريسك
وعارض قلت : بماذا وأين الاصل قال : كنت أحفظ هذا الكتاب في مدة صباي
قال : فتبسمت من قوله فلما رأى تبسمي قال يا بني أمسك على قال : فامسكت عليه
وجعل يقرأ فوالله ان أخطأ واوياً ولا وفاء قرأ هكذا نحواً من كراسين ثم أخذت
له في وسط السفر وآخره فرأيت حفظه في ذلك كله سواء فاشتد عجبى وقتت مسرعاً
حتى دخلت على أبي فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل فقام كما هو من فوره وكان
ملتفماً برداء ليس عليه قميص وخرج حاسر الرأس حافي القدمين لا يرفق على نفسه
وأنا بين يديه ويقول : يا مولاي اعذرني فوالله ما أعاني هذا الخلف الا الساعة
وجعل يسبني والرجل يخفض عليه ويقول : ما عرفني وأبي يقول : هبه ما عرفك
فما عذره في حسن الأدب . ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخالاه به فتحدثا طويلاً
ثم خرج الرجل وأبي بين يديه حافياً حتى بلغ الباب وأمر بدارية التي يركبها فاسرجت
وحلف عليه ليركبها ثم لا ترجع اليه أبداً فلما انفصل قلت لأبي : من هذا الرجل
الذي عظمته هذا التعظيم قال لي : اسكت ويحك هذا أديب الاندلس وامامها
وسيدها في علم الآداب هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون أيسر محفوظاته
كتاب الأغاني - رواها المرزا كشي

وروى أيضاً قصة تشبهها قال انه لزم أبا جعفر الحميري آخر من انتهى اليه علم
الآداب بالاندلس المتوفى سنة ٦١٠ نحواً من سنتين فما رأيت أروى لشعر قديم
ولا حديث ولا أذكر بحكاية تتماق بادب أو مثل سائر أو بيت نادر أو سجع
مستحسنه منه أدرك جلة من مشايخ الاندلس فاخذ عنهم علم الحديث والقرآن
والآداب وأعانه على ذلك طول عمره وصدق محبته وافراط شغفه بالعلم قال لي
ولده عصام وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبي الطيب قرئت على أو أكثرها
فالتقيتها شديدة الصحة فقلت له : لقد كتبتها من أصل صحيح وتحزرت في نقلها
فقال لي . ما يمكن أن يكون في الدنيا أصل اصح من الاصل الذي كتبت منه
فقلت له : أين هو فقال لي عن يمينك فعلمت انه يريد الشيخ فقلت : ما على يميني
الا الاستاذ فقال لي : هو أصلي وباملائه كتبت كان يملئ على من حفظه فجمعت

اتمجب فسمع الاستاذ حديثنا فالتفت اليما وقال : فيما اتما فاخبره ولده اخبـر فلما رأى تمجبي قال : بعيد أن تفلحوا يعجب أحدكم من حفظ ديوان المتنبي والله لقد أدركت أقواماً لا يعدون من حفظ كتاب سيويه حافظاً ولا يرونه مجتهداً ومن نظر فيما أثر عن الاندلسيين وحدهم من هذا القبيل يكتب أوراقاً كثيرة وكنت قرأت في الاستقصاء ان من جملة من غرق مع السلطان أبي الحسن لما قصد الغرب في البحر بأسطوله الفريق وكان مؤتماً من نحو ستمائة قطعة مع من غرق من الفقهاء والعلماء والاشراف أبو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسي الذي أملى في مجلس درسه بمكناسة على حديث يا أبا عمير ما فعل النخير از بهائة فائدة

وقيل إن صدر الدين بن الوكيل ويعرف عند المصريين بابن المرجل من أئمة الشافعية حفظ المفصل في مائة يوم ويوم والمقامات الحريية في خمسين يوماً وديوان المتنبي على ما قيل في جمعة واحدة

وذكر المقرئ عن حكايات أهل الاندلس في الحفظ ان الاديب الاوحد حافظ اشبيلية بل الاندلس في عصره أبا المتوكل الهيثم بن أحمد بن أبي غالب كان أعجوبة دهره في الرواية للاشعار والاشراف قال ابن سعيد : اخبرني من أتقن به انه حضر معه ليلة عند أحد رؤساء اشبيلية فجرى ذكر حفظه وكان ذلك من أول الليل فقال لهم ان شئتم تخبروني أحببتكم فقالوا له بسم الله انا نريد أن نحدث عن تحقيق فقال اختاروا أي قافية شئتم لا أخرج عنها حتى تمجبوا فاختاروا القاف فابتدأ من أول الليل الى أن طلع الفجر وهو ينشد وزن (أرق على أرق ومثلي يأرق) وسماه قد نام بهض وضج بعض وهو ما فارق قافية القاف وقال أبو عمران بن سعيد دخلت عليه يوماً بدار الاشراف باشبيلية وحوله أدباء ينظرون في كتب منها ديوان ذي الرمة فد الهيثم يده الى الديوان المذكور فبذره أحد الادباء فقال . يا أبا عمران اواجب أن يمنعه مني وما يحفظ منه بيتاً وأنا أحفظه فاكذبتة الجماعة فقال السمعوني ، وامسكوه فابتدأ من أوله حتى قارب نصفه فاقسمنا عليه أن يكف وشهدنا له بالحفظ وكان آية في سرعة البديهة مشهوراً بذلك قال أبو الحسن بن سعيد . عهدى به في اشبيلية يملئ على أحد

الطلبة شعراً وعلى ثانٍ موشحة وعلى ثالثٍ زجلاً كل ذلك ارتجالاً .
قال ابن خلدان: كان أبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني يحفظ من الشعر
والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث المسندة والنسب ما لم ارقط من يحفظ
مثله ويحفظ دون ذلك من علوم آخر منها اللغة والنحو والخرافات والسير والمغازي
ومن آلة المناداة شيئاً كثيراً مثل علم الجوارح والسيطرة ومنتف من الطب
والنجوم والأشربة وغير ذلك وذكر صاحب الصبح المتنبي أن العلم الفردي في قوة
الحافظة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . ولقد شرط الملك المظفر عيسى لسكل
من يحفظ المنفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة فحفظه لهذا السبب جماعة

قال أبو عمر الطائفي دخلت مرسية فتشبت بي أهلها يسمون على الغريب
المصنف فقامت انظروا من يقرأ لكم وأمسكت أنا كتابي فأتونني برجل أعمى
يعرف بابن سيدة (وهو صاحب المخصص في اللغة الذي طبع مؤخراً) فقرأه على
من أوله إلى آخره فمجت من حفظه . ولقد لازم ثعلب بن الأعرابي فما رآه
نظر في كتاب . وأخبار الأصمعي في الحفظ والرواية أشهر من أن تذكر وكذلك
خلف الأحمر والسكابي وعبيد ودعبل . وكان أبو تمام لا يلحق في محفظاته وقيل
أنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع . قال أبو
الحسن محمد بن علي العلوخي كان المتنبي يلازم الوارقين فآخبرني وزان كان يجلس
إليه قال ما رأيت أحفظ من هذا الفتى بن عبدان السقي (المتنبي) قالت له . كيف
قال اليوم كان عندي وقد أحضر رجل كتاباً من كتب الأصمعي يكون نحو
من ثلاثين ورقة فآخذة فنظر إليه طويلاً فقال له الرجل أريد بيعه وقد
قطعتني عن ذلك فإن كنت قد حفظته في هذه المدة فإلى عليك قال . أهب لك
الكتاب قال . فأخذته من يده فأقبل بهذه على آخره ثم استسأله فجعله في كفه
وقام فتعلق به صاحبه طالباً بما له فقال ما إلى ذلك سبيل وقد وهبته لي قال .
فمنعناه منه وقلنا . أنت شرطت على نفسك هذا للغلام فتركه عليه . والامثلة
كثيرة في هذا الباب والله أعلم

الإنشاء والمنشؤون^(١)

إذا أردنا أن نحكم على المنشئين بما انتهى إلينا من خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم ومصنفاتهم وبدأنا بأهل القرن الأول للإسلام، نرى على رأسهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، فانه سيد البلغاء على الإطلاق، وواضع بنيان البيان العربي، وكلامه كما قال العارفون بعد كلام الله وكلام رسوله (عليه الصلاة والسلام) أبلغ كلام، ونهج البلاغة (٢) الذي جمعه الشريف الرضي من كلامه وشرحه ابن أبي الحديد كتاب الدهر الخالد. وقد عد كثير من الصحابة أئمة في الكتابة والخطابة (راجع «عجاز القرآن» للباقلاني و«الاتقان» و«المزهر» للسيوطي).

ولم يؤثر عن عصور الجاهلية خطب ورسائل كثيرة لأن التدوين لم يحدث في الأمة العربية إلا في أوائل القرن الثاني للهجرة، وكانت العرب تعتمد على ذاكرتها ومحفوظها ورواياتها المتسلسلة. قال الرقاشي: ماتكلمت به العرب من جيد المنشور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنشور عشره ولا ضاع من الموزون عشره. ومعظم الذي أبقته الأيام من أدب العرب لم يبرح محفوظاً في الخزان لم يطبع وأكثره محفوظ في جامعات أوروبا ودور كتبها. ختم القرن الأول بأمر المؤمنين عمر بن عبد العزيز، فان رسائله الموجزة وخطبه الفراء التي نقلها ابن سعد في «الطبقات الكبير» وابن الجوزي في «مناقبه» آية في البلاغة، وفيها من أدب العرب مسحة وطلاوة، ورسائله وخطبه في الإدارة والسياسة على قلمها، تربي فيمن يتدبرها ملكة الإنشاء وتقف به على أصول الإدارة العربية. ومن بلغاء هذا القرن زياد بن أبيه والحجاج ابن يوسف الثقفي وقطري بن الفجاءة وعمران بن حطان. وهذان الاخيران من

(١) نشرت أولاً باللغة الافرنسية في مجلة التعليم Bulletin de l'enseignement التي تصدر في بيروت وفي جريدة البلاغ المصرية بتاريخ ١٢ و١٣ و١٥ و١٧ جمادى الاولى ١٣٤٣ (١٩٢٤)
(٢) جميع الكتب الواردة أسماؤها في هذا المبحث مما طالعناه وتدارسناه وحكمنا عليه بأنفسنا.

خطباء الخوارج . وقد استقرت أخبار الخوارج الذين خرجوا على الخليفة الرابع يوم النهروان ، جزءاً مهماً من كتاب «الكامل» للمبرد تتمثل بها بلاغة الفوضويين والمدميين والشيوعيين في الاسلام .

جاء القرن الثاني وقد نبغ في أوله عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وهو النهاية في البلاغة والفصاحة ، اختط للناس خطة الترسل والانشاء ، ثم عبد الله بن المقفع الذي أسست له الكتابة قيادها ، فلم تعد له هنة واحدة في باب التكلف ، بل كان في «اليتيمة» وسائر ما فاضت به قريحته من رسائله ابتداء كما كان في ترجماته «ككيلة ودمنة» طبقة عالية في البلاغة . ولو عمر ابن المقفع (عاش ستاً وثلاثين سنة) لابقى لنا أمثلة في البيان ، يتخرج بها طلاب الأدب من العرب ، على غابر الحقب . ونبغ في هذا القرن سهل بن هرون وهو بالقليل الذي وصلنا من رسائله نابغة في علمه وأدبه ، وناهيك بمن كان الجاحظ ينوه به ، وينقل عنه في كتبه . وكان كثيراً ما يؤلف الكتاب وينسبه لسهل بن هارون فيجمع الناس على استحسانه ، أكثر مما كان لو نسبه لنفسه ، وكتابة سهل من السهل الممتنع ، لا حوشى فيها ولا مبتذل ، أو كما قال الجاحظ في الكتاب «أنهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً» ومن خطباء هذا القرن داود بن علي وشبيب بن شيبه ومن كتابه اسماعيل ابن صبيح كاتب الرشيد وعمر بن مطرف كاتب المنصور والمهدى والهادى والرشيد . وصالح بن جناح صاحب كتاب «الادب والمروءة» وكلامه رشيق دقيق مستفاد في الحكمة .

وكان يقال بلغاء الناس عشرة عبد الله ابن المقفع وعمارة بن حمزة وخالد بن يزيد وحجر بن محمد وأنس بن أبي شيخ وسالم بن عبد الله ومسعدة والهزبروعبد الجبار ابن عدى وأحمد بن عدى وأحمد بن يوسف . قال صاحب «الفهرست» ومن البلغاء الحدث ابراهيم بن العباس الصولى والحسن بن وهب وسعيد بن عبد الملك ولم يصل اليانا من كلام هؤلاء الجهابذة شىء يذكر اللهم إلا ما عرف من كلام ابن المقفع وأحمد بن يوسف والصولى والباقون دثرت كتاباتهم إلا تنفأ قليلا لا يبنى عليها حكم

ومن كتاب هذا القرن أبو اسحاق الكاتب ابراهيم بن محمد المدبر وزير المعتمد

على الله المتوفى سنة ٢٧٩ « صاحب النظم الرائق والنثر الفائق » وهو صاحب « الرسالة الصندراء في موازين البلاغة وأدوات الكتابة » التي نشرناها في « رسائل البلغاء »

وامتاز القرن الثالث بظهور الجاحظ (٢٥٥ هـ) الذي رزق الاجادة في كل ما كتب وهو رب البديهة في أفكاره ومظاهر عامه وتقريره . ولم يهد قبله أن تبرز الموضوعات المختلفة في هذا القالب الفتيان ، الذي يظهرها فيه غير متكلف ولا متمسف . وكلماته كلما كررتها حلت وبقدر ما تناولها تتجلى لك رقة معانيها . ومتانة مبانيها ، وتدهش وأنت تطالع كلامه من تملكه ناصية اللغة وبراعته في استعمال الألفاظ في أما كتبها وربما تساهل فأورد ألفاظاً عامية في معرض كلامه لينقل الأفكار بحالتها . ولم يكذب يعهد مثله في الجوردين من المؤلفين من يريك ببيانه الباطل حقاً ، والحق باطلاً ، يقول الشيء وتقيضه . ويقنعك في الأول حتى لا تظنك تقنع بمد بكلام ، ويرجع عليك بكلم طيب ، فينسيك ما أصاب في الأولى . وهكذا يلعب بالعقول كالسحر ولكنه السحر الحلال

افتح أي كتاب من كتب الجاحظ التي أبقته الايام للمكتبة العربية ذخراً ونحراً ، تشهد المعجب من تقننه وإبداعه ، وتذكر كيف تستجيب له المعاني ، وتنقاد الألفاظ برشاقتها وجزالتها ، وقد يشوب كلامه ببعض الظرف والهزل والنوادر أحياناً لئلا يمل مطالعه هكذا تراه في « كتاب الحيوان » و « البيان والتبيين » و « البخلاء » و « المحاسن والاضداد » و « الحاسد والمחסود » وغيرها من رسائله وهي بضع وعشر رسائل مطبوعة وكل صفحة من صفحاتها أفيد من مجلد برمته ومن يجيء بعد الجاحظ أبو حنيفة الدينوري صاحب كتاب « الاخبار الطوال » و « أبو حنيفة أكثر ندرة ، وأبو عثمان (الجاحظ) أكثر حلاوة ، ومعاني أبي عثمان لأطمة بالنفس ، سهلة في السمع ، ولفظ أبي حنيفة أعذب وأعرب ، وأدخل في أساليب العرب قال أبو حيان التوحيدي والذي أقول وأعتقده وأخذ به وأساهم عليه اني لم أجد في جميع من تقدم وتأخر الا ثلاثة لو اجتمع الثقلان (؟) على تقريرهم ومدحهم ونشر فضائلهم في أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم ، وذكر الجاحظ والدينوري

وثالث بأبي زيد أحمد بن سهل البلخي ، ووصف كل واحد بالفاظ عجيبة .
وما امتاز به هذا القرن ان علوم الاوائل التي بدىء بترجمتها في منتصف القرن
الاول في دمشق بمعرفة خالد بن يزيد الاموي وعنى بها عمر بن عبد العزيز
أواخره ، قد زادت العناية بها في بغداد على عهد المنصور العباسي ، ثم بلغت
أشدّها في زمن المأمون . وقد أدخلت هذه العلوم والصناعات في العربية روحاً
جديداً ، فترجم اليها من اليونانية والسريانية والفارسية والهندية وغيرها ،
فاغتنت اللغة ورأت من الاساليب والافكار مالا عهد لها به . وهذا أول تأثير
من آداب الامم الاخرى أصاب اللغة العربية فأصبحت لغة علم وصناعة ، بمدان
كانت لغة شعر وحكمة فقط . وعصر المأمون هو في الحقيقة العصر الذهبي في
الادب والكتابة والعلم وسائر مقومات الحضارة العربية .

قلنا إن أحمد بن يوسف الكاتب هو من أوائل البلغاء ، وقد أورد بعض
رسائله الصولى في كتاب « الاوراق » المخطوط وأورد له ابن طيفور صاحب
« كتاب بغداد » المطبوع نموذجات من رسائله ، وفي كتب التراجم المطولة شيء
عن كتاباته المسجعة على مثال السجع الذي يقع في كلام أئمة البلاغة في القرن
الاول وناهيك برجل أعجب المأمون بعقله وأدبه فاستوزره واستكتبه . والكاتب
المجودون في هذا القرن كثيرون ومنهم عمرو بن مسعدة وزير المأمون « وكان
كاتباً بليغاً جزل العبارة وجيزها ، سديد المقاصد والمعاني » وصدق عليه مقاله
الرشيد في البلاغة « البلاغة التباعد عن الاطالة ، والتقرب من معنى البغية ،
والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى » . وأبو علي الدامغانى الوزير
وأبو الفتح البستي « صاحب الطريقة الايقية في التجنيس النفيس البديع التأسيس »
ومن أهم من انتشرت كتبهم ابن قتيبة (٢٧٦) فهو ثاني الجاحظ بملمه وجودة
انشائه وتأثيره ، وفي كتابه « الامامة والسياسة » و « كتاب العرب » و « مختلف
« تأويل الحديث » و « الاشربة » و « المعارف » و « عيون الاخبار » و « أدب
الكاتب » ما يدل على روح سام سار فيه الأدب مع العلم سيراً متساوقاً ويعود
من كتاب الدرجة الأولى في القرن الرابع أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية
(٣٤٥) بغدادى الاصل انتقل أبوه الى مصر وكان أحمد من كتاب الدولة الطولونية

وقد عرفناه من كتاب « المكافأة » الذي نشر له مؤخراً مع قطعة من كتابه « حسن المقبي » وهي عبارة عن حكايات فيها حكمة ومواعظ واعتبار آية في البلاغة ومنهم أبو بكر الصولي (٣٣٥) صاحب كتاب « الاوراق » و « أدب الكتاب » وأحمد بن عبد ربه (٣٢٨) صاحب « العقد الفريد » وجعفر بن قدامة ابن زياد الكاتب (٣١٩) . وعرفنا من أهل هذا القرن زمرة من الكتاب الذين زانوه بأقوالهم وأفضالهم ومنهم أبو الفضل بن العميد وزير بني بويه (٣٦٥) وكان أبوه أيضاً كاتباً مترسلاً من كتاب الدولة السامانية وابن العميد أول من فتح باب السجع وأكثر من أنواع البديع . وكان يقال فتحت لرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد كما قيل بديء الشعر بملك أي امرئ القيس وختم بملك أي أبي فراس الحمداني . وما قيل في ابن العميد يقال في الصاحب بن عباد (٣٨٧) فهو أيضاً ممن تناغى بالجناس . واكثر من الاسجاع وكان يقول . كتاب العصر أربعة . الاستاذ الرئيس يعني ابن العميد . والاستاذ أبو القاسم يعني عبد العزيز بن يوسف . وأبو اسحق يعني الصابي ولو شئت لذكرت الرابع يعني نفسه

ويجي مع هذه الطبقة ابو بكر الخوارزمي (٣٨٣) وكان يميل الى طريقة ابن العميد في الكتابة و « رسائله » المطبوعة المشهورة مثال البلاغة والفصاحة على كثرة الاسجاع فيها حتى لا يكاد يعدوها . وقلما تفوته . وأما بديع الزمان الهمداني (٣٩٨) صاحب « الرسائل » و « المقامات » المشهورة فانه سار مع الطبع أكثر من الخوارزمي وكثيراً ما يترك التسجيع وأنواع البديع . واذا استعملها ففي مواطن خاصة وجمل معينة ثم يعود الى طبعه فتأخذ أقواله بمجامع القلوب . وأكثر ما قرأناه من « رسائل الصابي » (٣٨٤) الصادرة عن الخلفاء وغيرهم ومنها ما طبع على حدة ومنها ما اقتبس في « صبح الاعشى » — قد أفرغ في قالب من السجع البديع المستملح وقد يتخلى عنه في بعض التقاليد والعهود ، ولو تيسر له أن يطرح السجع على طريقة البديع لجاءت كتاباته مفخر الأسلاف ، وأعظم معلم للاخلاف

وممن نبغ في ذلك القرن أبو الفرج الببغا وعبد الله بن عمرو الفياض كاتب

سيف الدولة ونديمه وأبو القاسم علي الاسكافي النيسابوري وكان من علو الرتبة في النثر وانحطاطها في النظم كالملاحظ . وعلي بن هند صاحب « الكلم الروعانية » ويحيى بن عدي صاحب تهذيب الاخلاق أو سياسة النفس (٣٦٤) وابن حبان البستي (٣٥٤) صاحب « روضة العقلاء » والحائمي صاحب « الرسالة الحاتمية » التي شرح فيها ماجرى بينه وبين أبي الطيب المتنبي من اظهار سرقاته وابانة عيوب شعره والقاضي التنوخي (٣٨٤) صاحب « النشوا » و « الفرج بعد الشدة » وقدامة بن جعفر الكاتب (٣٣٧) صاحب « نقد الشعر » و « كتاب الخراج » وابن نباتة صاحب « الخطب » المشهورة ومنهم أبو جعفر محمد بن العباس وزير المكتفي والمقتدر وابومنصور البغوي (٧٥) ورأس أدباء هذا القرن ابو العلاء المعري والشعر غالب عليه وكتابته مصنعة فيها كثير من عويص اللغة وسبكها لا يخلو من يبوسة وجفاء طبع ولكن « رسالة الغفران » التي كتبها رداً على رسالة بن القارح وكلاهما مطبوع اشبهت رواية دانتى الشاعر الايطالى *La divine comedie* وكانت من أعظم الروايات الخيالية الدالة على أن أعمى المعرفة كان معلماً لنا بعبارة ايطاليا في الشعر والخيال . وبعض الباحثين من المشرقين في أوروبا على ان دانتى في روايته الالهية المؤلفة من ثلاث روايات وهي جهنم والمطهر والجنة التي ألفها بين سنتي ١٣٠٠ - ٣١٨ م قد اقتبسها ولا سيما رواية جهنم من رسالة الغفران للمعري ونسج على منواله في التصور

وان ما كتبه المعري على ديوان أبي تمام الطائي وسماه « ذكرى حبيب » وعلى ديوان أبي عبادة البحرى وسماه « عبث الوليد » وما كتبه على ديوان أبي الطيب المتنبي وسماه « معجز احمد » بدل على احاطة المعري بأسرار العربية وفهم كلام العرب ومراميمهم وشدة ملكته في النقد الادبي . دع فلسفته في « لزومياته » و « دواوينه » فالمعري فيلسوف لغوي وليس بكاتب . ومنهم على ابن خلف صاحب « مواد البيان » الذي نقل القلقشندي في صبح الاعشى جزءاً منها منه .

وتميز القرن الخامس بظهور كثير من الكتاب فيه ومن أشهرهم الذين تركت الأيام لنا شيئاً من كتاباتهم الأمير قابوس بن وشكمير (٤٠٣) صاحب « كمال البلاغة » فإن كتاباته هي الموسيقى برقتها ، والشعر الفتان ، ولكن بدون قافية وروى ، إلا أن الاسجاع غالبه عليه ، مستحكمة في حواشي كلامه ، أخذت بجماع أدبه خلافاً للشعالي (٤٢٦) سيد كتاب هذا العصر ، ومن أعظم مؤلفيهم في اللغة والآداب ، فإن مقدمة كتابه « فقه اللغة » طبقة عالية في الكتابة المرسلات في عصره وبعده ولو تخلى عن السجع في « يتيمة الدهر » التي ترجم فيها أدباء عصره على نحو ما تركه في « المضاف والمنسوب » « ولطائف المعارف » وغيرها من كتبه ورسائله لما عيب عليه في شيء . ومثل ذلك يقال في ابن رشيق القيرواني (٤٥٦) صاحب « الممددة » أحد أمهات كتب الأدب الذي انتقده أبو عبد الله ابن شرف القيرواني في (رسائل الانتقاد) وكان الناس في الدهر القديم يعتمدون على أربعة كتب لا تقان فن الأدب . « البيان والتبيين » للجاحظ و « أدب الكاتب » لابن قتيبة و « الكامل » للمبرد و « الأمل » لأبي علي القالي . ومن هذه الكتب الأربعة ما شرح ومنها ما اختصر ومنها ما انتقد شرح « أدب الكاتب » لابن قتيبة بن السيد البطليموس ومن انتقدوا « آمل » القالي « أبو عبيد البكري صاحب « معجم ما استعجم » في جزء لا يزال مخطوطاً سماه « التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه »

ومن توفي على رأس الأربعمائة أبو حيان التوحيدى وهو مبتدع طريقة خاصة به قرأناها في كتاب « المقابسات » و « رسالة الصديق والصدافة » و « الأشارات الإلهية » . وذكر الشعالي ثلاثة من كتاب آل بويه وهم أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وأبو أحمد عبد الرحمن بن الفضل الشيرازى وأبو القاسم علي ابن القاسم القاشانى وأورد من كلامهم نحو ذجات لطيفة . ويعمد في الطبقة الأولى من المؤلفين والكتاب المجيدين أبو الفرج الأصفهاني صاحب « الأغاني » وأبو الحسن علي بن عبد العزيز صاحب كتاب « الوساطة » بين المتنبي وخصومه والأمير عبد الله الميكالى فإنه من الكتاب المجيدين والسجع غالب عليه ومثله أبو النصر العتبي واضع « تاريخ بن سبكتكين » المعروف باليمنى وهو التاريخ

المسجع البديع ويعد مؤلفه من أكبر المنشئين
ومن كتاب هذا القرن ابن موصلايا (٤٩٨) وابن نايقيا (٤٨٥) والموفق
ابن الخلال صاحب ديوان الانشاء على عهد الحافظ العميدى بمصر (وكانت له قوة
على الترسل يكتب كما يشاء » وكان الغالب على الموفق بن الخلال فى رسائله
العناية بالمعاني أكثر من طلب السجع وكان فى الكتابة بمصر فى زمن الدولة
العلوية غرضاً طرياً وكان لا يخاو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكاناً وبياناً
ويقيم لسلطانه بقلمه سلطاناً ، « ومن أثرت بعض رسائله فى هذا القرن هلال بن
الحسن الصابى (٤٤٨) حفيد أبى اسحق صاحب الرسائل ومؤلف كتاب
« أخبار الوزراء » ومن المجيدين فى الانشاء وأن عددهم الناس فى طبقة الحكماء
أحمد بن مسكويه (٤٢١) مؤلف « تهذيب الاخلاق » و « الفوز الاصغر »
و « تجارب الأمم » فان كتابته مثال الانشاء المرسل البديع ومنهم أبو طاهر
محمد بن حيدر (٥١٧) صاحب « قانون البلاغة » وهو لم يطبع

وفى هذا العصر نبغ فى الاندلس الوزير ابن زيدون (٤٦٣) فى النظم والنثر
و « رسالته » على لسان ولادة بنت المستكفى بالله أدبية عصرها من المرقص
المطرب . ومثل ذلك يقال فى الوزير ابن حزم الاندلسى (٤٥٦) فانه من اكتب
العلماء فى عصره ، ومن المكثرين من التأليف الجودين فيه . وناهيك بكتابه
« طوق الحمامة » و « رسالته فى الاخلاق » دليلاً على أدبه الراقى ، ومثالا من

أنشاء عصره الذى أشبه فى الادب عصر لويز الرابع عشر فى فرنسا
ولشأ فى هذا القرن والذى يليه فى الاندلس طبقة من الكتاب ومنهم من تولى
الوزارة . والغالب ان الكاتب المجيد فى الدهر السالف يكون وزيراً كالخطيب
المصقع فى هذا الدهر يكون رئيس وزراء . مثل الباجى وابن الدباغ وابن الجدد
وابن القاسم وأبى الاصبغ وابنه أبو عامر وابن سفيان وابن الحاج وابن عبدون
وابن أبى الخصال وابن عبد العزيز وابن السقاط وابن القصيرة « وكان هذا على
طريقة قدماء الكتاب من اتيان جزل الالفاظ ، وصحيح المعاني ، من غير التفات
الى الاسجاع التى أخذها متأخرو الكتاب اللهم الا ما جاء فى رسائله من ذلك عفواً
من غير استدعاء » ومنهم ابن عبد الغفور وابن عمار وابن الافطس وابن سالم

ومنذر بن سعيد وابن أيمن وابن اللبابة وابن عبد البر والفرضي وابن سعيد
المؤرخ وابن حيان وابن القوطية وأبو عبيد البكري صاحب « معجم ما استعجم »
و « المسالك والممالك » وابن الطفيل صاحب « رسالة يحيى بن يقظان » وفيها اشارات
لمذهب النشوء والأرتقاء . ومنهم البطليوسى وابن تومار وابن هود والنحلى
والاشبونى والقسطلى وابن لبون وابن رزين والنخري والسرقسطى وابن القلاس
والقصاصى والبهارى والحجارى والدانى والبلنسى والطليطلى وغيرهم وما منهم
الا منشىء مجود ومؤلف جزل العبارة رشيق الالفاظ . ولا غرو فان الاندلس
أخرجت للادب رجالا عظاما ، تشم من مكتوباتهم أرج الغرب ، وقد جمع أحد
علماء المشرقيات من الاسبان تراجم الاندلسيين من العرب فكانوا ثلاثين الف عالم
وأديب وفقه ومهندس وطبيب الخ من أصحاب المنزلة . وترجم الفتح بن خاقان
(٥٣٥) صاحب « قلائد العقيان » و « مطمح الانفس » لبعض أولئك الادباء
بالاسجاع المطبوعة كما ترجم لهم وغيرهم ابن بسام فى « الذخيرة » واشتهر
بالوزارة من الكتاب المجودين فى بغداد الوزير على بن عيسى والوزير أبو الحسن
ابن الفرات . واملى بن عيسى (مذهب فى الترسل لا يلحقه فيه أحد ولا ابن الفرات)
ومنهم أبو على محمد بن خاقان ومحمد بن عبد الملك الزيات الى غيرهم من الكتاب
الناهين والخطاملين وربما كان فى الخطاملين من هم أعلى كعباً من الناهين
ومن اشتهر بنثره فى هذا العصر الحريرى (٥١٠) صاحب « المقامات »
و « درة الغواص » . وقد رزق بالمقامات الحظوة التامة ولكنها أيضاً من النثر
المتكلف لا المرسل ولو خيرنا بين نثره ونثر حجة الاسلام الغزالى (٥٠٥) لا اخترنا
كتابة الغزالى ولا سيما فى الجزء الثالث من « الاحياء » ورسائله التى أبان فيها
عن طبعه خصوصاً « التفرقة بين الاسلام والزندقة » و « تهافت الفلاسفة »
و « الرد على الباطنية » أو نثر الراغب الاصفهانى فى « الذريعة الى مكارم الشريعة »
و « تفصيل النشأتين » و « المحاضرات » أو الماوردى فى « أدب الدنيا والدين »
و « الاحكام السلطانية » . وفى كلام الحريرى مسحة من العمل قد يصل اليه
معظم من جمعوا أدواته من اللغة وكلام العرب لو شاءوا أن يحصروا وكدهم
ويتعملوا فى منشورهم . وكان ابن الخشاب يقول ان الحريرى رجل مقامات أى

انه لم يحسن من الكلام المنثور سواها فان أتى بغيرها فلا يقول شيئاً . ولعل
جار الله الزخشرى (٥٣٨) يفوقه باجادة صناعة النثر فسجعاته في « تفسيره »
و « المفصل » و « أساس البلاغة » و « مقاماته » و « أطواق الذهب »
و « الكلم النوابغ » و « انفاثق » في الغاية من الرقة والجزالة وكانت بينه وبين
رشيد الدين الوطواط صاحب « الرسائل » المطبوعة المسجعة محاورات ومرادات
والزخشرى أرقى بياناً وأوسع علماً . ويعد في كتاب هذا القرن أبو الفتوح
ابن الجوزى (٥٩٧) الواعظ المؤلف فانه خلف كتباً كثيرة ومنها كتاب
« الاذكياء » و « أخبار الحمقى والمغفلين » وأمثال هذه الكتب أشبه شىء بما
يطلق عليه الافرنج اسم « Folklore » أى العادات والتقاليد ومن مثل هذا كثير
في العربية مثل أخبار « عقلاء المجانين » للحسن بن حبيب المفسر . وقد حدثنا
التاريخ ان كثيراً من الكتاب ولا سيما في القرون الأولى وضع حكايات أشبه
شىء بقصص الفريين اليوم يقصدون بها تلقين فكر ، أو بث دعوة ، أو أحداث
مشغلة للعامة ، لصدهم عن البحث في شأن مهم للدولة ، وقد صنفوا كثيراً في
الاسمار والخرافات منها ما عربوه عن فارس والهند والروم وبابل ومنها ما ابتدعوه
ومنهم كتب روايات غرامية ذكروا فيها أخبار العشاق الذين عشقوا في الجاهلية
والاسلام ومنهم من ذكر الحبايب المتظرفات أو اکتفى بأخبار العشاق الذين تدخل
أحاديثهم في السمر . وصنع المتأخرون قصة ألف ليلة وليلة فاشتهرت في الغرب ،
ونقلت الى معظم لغات أوربا ، كما اشتهرت في الشرق العربي ومثل ذلك يقال
في قصة السندباد البحري والظاهر وتغريبة بنى هلال الى غير ذلك مما لا يعد في
الادب الراقي لانه كتب للعامة ولم يكتبه كتاب مجودون

ومن نشأ في هذا القرن ضياء الدين بن الاثير صاحب « المثل السائر » فهو
أيضاً كاتب مسجع مبدع وهو الذى تصدى ابن أبى الحديد المدائنى لمؤاخذته
والرد عليه وعنته وجمع هذه المؤاخذات في كتاب سماه « الفلك الدائر على المثل
السائر » . وسيد المنشئين على التحقيق في هذا العصر القاضى الفاضل وزير صلاح
الدين ، فهو حجة المنشئين سواء توسل بالسجع أو تخلى عنه ، مع انه لم يكن يفارقه
على الاغلب ، ولو انتهت الينا رسائله كلها لجاءت بضعة مجلدات والتليل المقتبس

منه في صبح الأعشى « ورسائله » المخطوطة وما نقل له في « الروضتين » مما تنبسط له النفس ويجيئ بمدته في المرتبة عماد الدين الكاتب الأصفهاني فهو سالك طريقته ، ولكنه في دعواه التفوق على غيره من الكتاب أشبه الناس بصاحب المثل السائر . والدعوى تذهب بهجة الملم وان كانت صحيحة وكتابه « الفتح القسي » « وزبدة النصر » نموذج أدبه ، وراموز صالح من سجنه وترسله ، وقد نشأ في عصر القاضي الفاضل والعماد الكاتب ، كاتب هزلي اسمه الوهراني (ركن الدين ابو عبد الله محمد ٥٨٥) عمل « الملمات والرسائل » المشهورة التي لم تطبع وذلك لأنه أيقن لما دخل الشام مهاجراً من الجزائر أن بضاعته لا تنفق مع وجود القاضي الفاضل والعماد الكاتب وتلك الحلبة كما قال بن خلكان في « وفيات الاعيان » فعهد الى الهزل ونفق سوقه ومنهم ابن منقذ صاحب كتاب « الاعتبار » ذكر فيه قصصاً في الشجاعة وقعت له ولاسرتة أصحاب قلعة شيزر على عهد الحملات الصليبية الاولى وذكر شيئاً من عادات الصليبيين وأخبارهم وشجاعتهم على صورة مستغربة ، ومنهم يحيى بن زيادة الشيباني انتهت اليه المعرفة بامور الكتابة والانشاء وابن الصيرفي صاحب « الاشارة الى من نال الوزارة » و « قانوديان الرسائل » ومن كان في القرن السابع من الكتاب وسار على الطريقة الفاضلية في الانشاء يحيى الدين ابن عبد الظاهر (٦٩٢) وابنه محمد فتح الدين ويهد الاب والابن من واضعي نظام الانشاء في عصرهما والعصرين التاليين . وابن عبد الظاهر أضعف في البلاغة بما ورد له في صبح الأعشى من الفاضل والعماد ومن تقدمه في الميلاد . ومن عرف بالبراعة في تصوير البلدان والآثار عبد اللطيف البغدادي الفيلسوف (٦٢٩) فان كتابه « الافادة والاعتبار » شاهد له بأنه من خيرة البلغاء في عصره . ومنهم الوزير عبد المحسن ابن جمو (٦٤٣) وبهاء الدين الاربلي والكمال بن العديم (٦٦٦)

وتعد رحلة بن خبير الكناني الاندلسي (٤١٦) الى الشرق من الادب العالي فقد وصف البلدان في عصره وصفاً فاق فيه من تقدمه مثل بن بطلان وابن فضلان كما فاق من تأخر مثل العبدري (٦٨٨) والبلوي (٧٤٠) وابن بطوطة (٧٧٩) والتركشي (٧٩٤) وابن أبي البركات النجدي (٨٩٥) على ان الجمل

التي أثرت عن بن بطالان في مطولات الجغرافية ، وكانت رحلته من العراق الى الشام في النصف الاول من القرن الخامس — تم عن أدب وفضل ذوق في وصف البلدان والسكان ، والقليل مما قرأناه من هذا القبيل في معجم البلدان ولاحمد بن فضلان — وكان المقتدر بالله العباسي أرسله الى ملك الصقالبة سنة ٣٠٩ هـ — يدل أيضاً على ذوق وفضل علم وأدب

وعلى ذكر الجغرافية يجب أن يمد في جملة الادب الجيد ما كتبه ياقوت الحموي فان « معجم البلدان » « ومعجم الادباء » من أنفس ما كتب الكاتبون في هذا القرن كما ان ما كتبه القفطي (٦٤٦) في « أخبار الحكماء » وما كتبه ابن أبي أصيبعة (٦٦٨) في « طبقات الاطباء » يعد من الادب العالى في تراجم الناس . ومن هذه الكتب الاربعة التي طبعها المستشرقون استفدنا أموراً كثيرة في الحضارة العربية لم نكن نعرفها من قبل كما استفدنا أى استفادة من نشرهم لنا (تاريخ الرسل والملوك) لابن جرير الطبرى « ومروج الذهب » للمسعودى و « الكامل » لابن الاثير و « تاريخ اليعقوبى » و « تاريخ سنى ملوك الارض والانباء » لحمزة الاصفهاني و « الفخرى » لابن الطقطقى و « البدء والتاريخ » لمطهر بن طاهر المقدسى وغير ذلك من تواريخ الاولين وكذلك استفدنا من نحو خمسة عشر مجلداً لجغرافى العرب طبعوها فعلمونا بها تاريخ بلادنا الاقتصادى والعمرانى وأشياء مهمة لم نكن نحلم بوجودها وكثر بها رأس مالنا من الفصيح والتعابير العامية

ومن كتاب القرن الثامن في مصر والشام بن فضل الله العمري صاحب (مسالك الابصار) و (التعريف بالمصطلح الشريف) والصلاح الصفدى (٧٦٤) صاحب (الوافى بالوفيات) و (تحفة ذوى الالباب) و (نكت الهميان) و (جنان الجناس) و (دمة الباكي) والشهاب محمود الحلبي صاحب (حسن التوسل في معرفة صناعة التوسل) وعلاء الدين بن غانم واحمد الانصارى وابن القيسراني وكمال الدين الزملاكنى . ونبغ في الاندلس اسان الدين بن الخطيب ولو لم يكن له الا (الاحاطة في أخبار غرناطة) لكفى في تفوقه في كتابته وشعره فانه صور

وترجم لهم كأنك تراهم فهو كاتب ومصور على ما يظهر . ونفح الطيب للمقرى يحوى طرفاً صالحاً من نظم لسان الدين وثره مع زمرة من رجالات الاندلس . وقد حل لسان الدين بعض القيود في البكتابة هو وصاحبه ابن خلدون (٨٠٨) وكان الكتاب قبلهما ولا سيما في القرنين السادس والسابع يقلد بعضهم بعضاً فأصبحت الصناعة تسير نحو التقليد لا إبداع فيها ولا تجديد . فالمجددون في الحقيقة في القرن التاسع هما عبد الرحمن بن خلدون ولسان الدين بن الخطيب . ولم تكذب العالوم الاجتماعية والتاريخية قبل بن خلدون بمثل ذلك اللسان الذي استعمله ولا غرو فهو وصاحبه حسنة من حسنات الاندلس ، وزهرتان ناضرتان من الزهور التي أهداها المغرب للمشرق وبها ختم عهد الاندلس

* * *

كانت دواوين الانشاء في قرطبة وغرناطة والقاهرة ودمشق وبغداد وغيرها من مراكز الحكومات في القرون الوسطى مدارس لتعلم الانشاء ، والاخذ من فن الادب العربي الواسع فلما انحلت دولة الاندلس ، واستولى الترك العثمانيون على مصر والشام والعراق بطل التنافس بالادب والانشاء لأن التميز في هذا الشأن ، أصبح لا يجدى صاحبه شيئاً ، وغدا فن الانشاء مقصوراً على بعض أفراد في كل قطر عربي يستخدمونه حلية وزينة ، واذ لم يبق في الحكومات من يقدر الادب قدره ، ضعف بحكم الطبيعة ، وزاد عدد الشعراء أكثر من الكتاب لسهولة الشعر ، وامكان الانتفاع به في المديح . وان كان الشعراء في كل دور من أدوار العرب فيما رأينا أكثر من الكتاب بما لا يقاس

طالع كتاب « عجائب المقدور » في أخبار تيمور المسجع الجنس و « فاكهة الخلفاء » وكلاهما لابن عربشاه من أهل القرن التاسع وتأملهما وتأمل « تاريخ العتبي » وسجعه تجديد حتى في السجع فروقا وأي فروق . وطالع « مقامات السيوطي » و « مقامات ابن الوردي » وعارضها بمقامات الحريري وبديع الزمان يتجلى لك الفرق بين النمط العالى على ما يقال فيه والذي دونه بمراحل . واقرأ « ريحانة الالباب » للشهاب الخفاجي ، وطالع سجعه الذي هو أرقى سجع في القرن العاشر ، تجد بينه وبين نثر ابن بسام في « النخيرة » وابن خاقان في « قلائد العقيان » فرقا

بيننا أيضاً ، كما أنك قلما تجد في الادباء الذين ترجم لهم الخفاجي وكانوا تقدموه وعاصروه في الشام ومصر والحجاز واليمن والمغرب الاشاعراً . والكتاب قلائل . والأدب العربي كاد يستحيل الى أمادح وأكثره للترلف من الكبراء وهو ضيق العطن ، مبتذل الديباجة ، فللنثر أسجاع ، تشق على الاسماع ، ولتنظم قواف لا تألفها الطباع ، والروح منقولة ، والالفاظ من جنس المبتذل مدخولة ، ومعظم المشعنين والمتأدين يكتبون نمطاً واحداً من عهد أبي اسحق الصابي وأحمد ابن يوسف الى عهد لسان الدين بن الخطيب وابن خلدون وهما اللذان أثبتنا أن للمعاني تأثيراً أعظم من تأثير الألفاظ ، فأتينا بالجديد المبتدع ، وخلص كلامهما من المصنع الغث ، وسارا مع الطبع في التأليف والوضع

وفي القرن التاسع نشأ القلقشندي (٨٢١) صاحب «صبح الاعشى» وكتابه من السجع على الطريقة الفاضلية المناسبة مع زمنه ، وقد جمع في كتابه نموذجات من انشاء العصور السالفة الى عصره ، فكان كتابه معامة (السيكولوجيا) للمثعنين كما كان كتاب (نهاية الارب للنويري) . وأهل البصر بعيوب الكلام يفضلون على القلقشندي المؤرخ المقرئ جلال الدين السيوطي . ومن كتاب القرن التاسع محمد بن أبي بكر الخزومي ومحمد بن عبدالدايم وابن حجة الحموي (٨٣٧) وكتابه (خزانة الادب) و (ثمرات الاوراق) لابن حجة مثال التكلف ، ومن اقتصر في درسه عليهما تخدشت فيه ملكة البيان لاحالة .

والقرن الحادي عشر مبدأ قرون الظلمات في الكتابات فان (نفحة الريحانة) للمعجب صاحب (خلاصة الاثر) في أعيان القرن الحادي عشر نموذج من نثر ذلك العصر ، ومن ترجم لهم من الادباء وأكثرتهم ممن ترجمهم في (خلاصة الاثر) عنوان أهل جيله وكذلك يقال في (سلافة العصر) لابن معصوم من أهل ذلك القرن فان سجعته متكلف ، ومن ترجمهم وليسوا من الكتاب قل فيهم النبوغ ، وغاية إجادة المجيد منهم أن ينظم قصيدة غزلية تقع موقع القبول من بعض القلوب ، أو قصيدة يتكسب بها من أرباب المظاهر ، أو يؤلف كلمات مسجوعة متشاكلتها والشعر ، ومثل ذلك يقال في كلام الحسن البوريني (١٠٢٤) في تراجم الاعيان فانه من هذا البحر والقافية . وكان في أوائل هذا القرن رجل استفاضت شهرته لانه

جمع علومها كثيرة وكان أديباً بارعاً وهو بهاء الدين العاملي (١٥٥٣) صاحب (الكشكول) و (المخلاة) و (أسرار البلاغة) فانه كان زينة عصره في الادب متفنناً في تنويع موضوعاته

وما قيل في المحبى وابن معصوم والبوريني يقال في الغزى مترجم أهل القرن الحادى عشر والمرادى مترجم علماء القرن الثانى عشر وما أورد هذا لهم من الشعر والنثر في كتاب (سلك الدرر) وبعضه أثقل من رضوى وأبرد من عرس وأين هو من السخاوى في (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) ومثل هذا قل في كتاب أهل القرن الثالث عشر مثل سجع البربر (١٢٢٦) في (مقاماته) وابن شاشو في (تراجم أعيان دمشق) فانه غاية ما وصلت اليه الكتابة من الابتدال والسجع الثقيل على الطبع. ولكن هذا القرن تجلت في أواخر نصفه الاول حركة تجديد فاختلف أهل مصر والشام بأهل الغرب ولا سيما مع علماء فرنسا وتخرج بعض أبناء القطرين في جامعاتها، فأخذت المترجمات في العلوم المختلفة على عهد محمد على مؤسس الدولة العلوية المباركة تؤثر تأثيرها المطلوب في روح الكتابة، وأخذوا طرفاً من آداب الغربيين ولا سيما الفرنسيون نقلوه الى العربية نقلاً ضعيفاً ركيكاً وأيقن الدارسون من أبناء مصر والشام ان الآداب العربية خلت في أرقى عصورها من التمثيل وان لم تخلو من القصص والروايات والحكايات التاريخية والأدبية، ولكن على صورة مصغرة

ومن المجددين الذين ختم بهم القرن الماضى أحمد فارس الشدياق اللبناني فانه أقام سنين طويلة في إنجلترا وفرنسا ومالطة والأستانة ونقل للعرب طريقة جديدة في تأليفه، وترك أثراً جميلاً من نبوغه وتفننه في أساليبه. وفي كتابه (الساق على الساق) و (الواسطة في معرفة أحوال مالطة) ومقالاته العلمية في جريدة الجوائب التي جمعت في (كنز الرغائب) و (الجاسوس على القاموس) و (سر الليال) يتجلى للناقد البصير كيف قلب الافكار، وأتى العرب بنمط مبتكر في التفكير والبحث، وفهم الأدب على غير ما فهمه أهل عصره، ومن سلفه من الأعصار

ومن كان في النصف الثانى من القرن الماضى في مصر واعد إمام النهضة الحديثة

رفاعة بك الطهطاوى (١٢٩٠) فانه ترجم وألف كثيراً وبه تخرج عشرات من رجال مصر ، وكان السجع يغلب عليه . ومن أدبائهم عبد الله فكرى باشا وهو ملتزم السجع ، ولكنه السجع القصير البعيد عن التكلف في الجملة ، وكذلك على مبارك باشا (١٣١١) وأهم الرجال الذين أدخلوا الانشاء في طور جديد ، رحلوه من قيوده الثقيلة التي رسف فيها قروناً ، الشيخ محمد عبده المصرى (١٣٢٢) فانه كان خطيباً مصقلاً وكاتباً بليغاً ، ولم يمهّد لرجال الدين كاتب مثله في القرون الأخيرة ، فكان كما قيل فيه يكتب الشريعة بلسان صاحبها ، تشهد له بذلك (رسالة التوحيد) و (الاسلام والنصرانية) و (رحلته الى ايطاليا) و (درس تفسيره) وقد تخرج به كثيرون من رجال مصر الحديثة ، كما تخرج بصديقه الشيخ طاهر الجزائري الدمشقي كثير من رجال النهضة في الشام ، فان هذا أيضاً خلع الثوب القديم البالى في الانشاء بعد أن لبسه في أول عهده وأخذ يسير مع الطمع ، تاركاً للجناسات وأنواع البديع جانباً ، تشهد له الكتب الكثيرة التي ألفها في الشريعة والطبيعة واللغة والآداب . ونشأ في الشام كتاب عصريون منذ خمسين سنة ومعظمهم ممن تشبعوا باللغات الافرنجية والمبدع منهم قليل ، ولا نذكر انه نشأ في الشام على عهدها الاخير كاتب مثل ابراهيم المويلحى المصري في ابداعه ولا سيما الجدى في قالب الهزل وكان يقلد الجاحظ في سرد الحقائق على أسلوب . الريالينست ، ونشأ في الانشاء في الشام أمثال ابراهيم اليازجى و ابراهيم المصور وشكيب ارسلان ويعقوب صروف وغيرهم من المجودين وفي مصر أمثال حنفى ناصف وقاسم أمين و ابراهيم اللقانى و احمد سمير و اضرابهم من الاحياء والاموات في الاقطار العربية ولو كتب لبعض الكتاب المشهورين في الشام والعراق أن يحذقوا أدب الغرب كما حذقوا أدب العرب لخدموا الادب كثيراً بيد ان الاجادة المتناهية قليلة ، وغيوب الانشاء تبدوا أكثر من غيوب الشعر وفي الثانى يغتفر مالا يغتفر فى الاول ، فقد قال لا بروير . أربعة لا يطاق فيها الاعتدال الشعر والموسيقى والخطابة والتصوير

الى اليوم على كثرة اختلاط مصر والشام وتونس والجزائر بأدباء الغرب وأخذهم عنهم لم يكتب اللغة العربية اقتباس التمثيل كما هو الحال في الغرب وذلك

لان التمثيل عارض في المدينة العربية ، وإيجاد المفقود أصعب من اصلاح الموجود ولكن الخروج بالكتابة عن روحها العتيقة مع الباسها الحلة العربية القديمة التي كانت لها في القرنين الثاني والثالث مثلاً والرغبة في القصص والنوادر آخذة بالترقي ، ومعظم قصصنا ونوادرننا ورواياتنا التشخيصية محتذاه من الافرنجية أو منقولة عنها بالحرف ، وهذا من أشع ضروب الاقتباس ، ولعله لا يطول الامر حتى ينشأ للأمة العربية روائيون وقصصيون وكتاب فاجعات وما س على الصورة التي جرت عليها أمم الحضارة الحديثة فيعود أرباب الاقلام الى الابداع والاختراع ويسير المنشئون بروح الامة يماجلونها بما يوائمها فما ينفع من أدب الغرب قد لا ينفع ولا يلتئم مع حالة ابن المشرق .

أكتب هذا بمناسبة سفر بديع ظهر حديثاً^(١) في عالم الادب العربي فأدخل السرور على قلوب أنصار التجدد واعنى به كتاب « مطالعات في الكتب والحياة » لكاتب من أفذاذ الكتاب بمصر الاستاذ العقاد ومؤلفه بمحاضرة نقادة في الادب والشعر على مثال أدباء الغرب . نشر قبل سنين كتاب (الفصول) فأجاد والآن جاء يعبد وأهل حلقتة ، تلك الطريقة وينشر على الادب جملة فضله الرائع ، الذي جمع فيه بين أجمل القديم وأنفع الحديث . ومن حسنت ملكته وصحت قريحته كان جديراً بأن يختار الاطياب في كل ما يعرض له

تقرأ الاستاذ العقاد فتظنك تقرأ نقاداً من نقاد فرنسا أمثال : فاجية ، ولتر وبيدو ، وبريستون ولكن بديباجة عربية تشبه اللغة يوم عزها ، ويدهشك بسلامة ذوقه ، وسلاسة تعبيره ، وورصف جملة ، وورنة تراكيبه ، وقلمما يكتب ذلك الا لافراد في كل عصر ، فقد كانت الطبقة السابقة التي حاولت ادخال هذه الطريقة في اللغة الى جانب القصور ، لضعف ملكاتها من اللغة التي حاولت تبديل قياقتها ، وكثيراً ما كانت ضعيفة أيضاً في اللغة التي حاولت الاخذ عن بنيتها تفهم الانفاظ ولكنها عن المعاني بممزل . بيد ان هذا النابغة رزق السعادتين ،

(١) « مطالعات في الكتب والحياة » للاستاذ عباس محمود العقاد طبع بالمطبعة التجارية الكبرى في

فأتقن الادب الافرنجى إتقانه للعربى ، وجاء منه جهيد بجائة ، ذو أسلوب مبتكر لا ينكره المنصفون من الغالين بتمجيد القديم ، ويفتبط به المجددون أية غبطة منذ أكثر من خمس وعشرين سنة وأنا أنظر فى الكتب العصرية التى تخرجها المطابع العربية فى الشرق والغرب ، فلم أجد أقرأ كتاباً فى الادب لمناصر تأليفاً كان أم ترجمة إلا وتراءى لى كثرة تقريظه فى تأليفه ، وقلمارأت إبداعاً الا فى بعض التأليف أمثال « حديث عيسى بن هشام » لسويلجى الصغير و (النظرات) و (المبرات) لمنفلوطى و (ليالى سطيح) لحافظ وبضمة كتب أخرى ليست على خاطرى . رجوت لها الخلود ، وباقيها ومنه المسجع أو الممسوخ أو المسلوخ أو المنسوخ ، لا استعجى أن أقول انها تنساقط كما يتساقط ورق الشجر فى الخريف ، وتضيع كما تضيع مقالات الصحف اليومية بعد صدورها بساعات معدودة

لم يبرح النزاع عندنا بين أنصار الجديد والقديم على أتمه ، ولكن التطور يعمل عمله ، رغم احتجاج المحتجين ، وصياح الصائحين ، والانتقال محسوس فى الادب ، كما هو محسوس فى كل أطوار الحياة عندنا ، وأنت اليوم اذا قرأت صفحة من (مقامات اليازجى) أو رسالة من (رسائل الاحدب) أو جملاً من مصطنى نجيب وحمزة فتح الله على تلميد شدا شيئاً من الادب يضحك مما سمعه ، ويقول لك هذا كلام يضعف اللغة ويذهب بهجتها وألفاظه أكثر من ممانيه . ولكنك اذا تلوت عليه صفحات من السيد العقاد تطربه نعمته ، وتعجبه ديباجته ، فتستغرق معه ساعات فى المطالعة لا تقل ، وكما أتممت فصلاً وددت لو طال ، أكثر . فقالات العقاد فى تحليل روح الممرى و حياة المتنبي وأدبه دات عن أدب بارع ونفس طويل ، وخواطره فى ما كس نوردو وأناتول فرانس والشعر ومزاياه والطبع والتقليد وعبقريه الجمال والتشاؤم وأدوار العمر كل ذلك مما يحمل للقارىء عاباً طريفاً وتليداً ، ونبوغاً وعبقريه وتجديداً ، يروقك بأسلوبه فتستفيد من الفكرة ومن القوالب البديعة التى ظهرت فيه

طلق الاستاذ العقاد الاسجاع والجناس وأنواع البديع ، وجاءنا بالبناء فيه طلاوة الحديث بسبكه ومعناه ، وجلالة القديم ببيانه ، وربما تلوت له فصلاً برمته

وليس فيه سيجمة أو معنى مكرر ، تراه يكتفى في تصويره بعشرة الفاظ ، وكان غيره يحشر له العشرين والثلاثين لفظة ، وإذا عمد الى استعمال الفصيح الذي لم يتبدل ، فانه يكون في كلامه بمقدار الخال في صفحة الوجه الجميل أما التراكيب فتظن نفسك وأنت تقرأ كلامه أمام (أبدى بدوى وعلى طباع أفصح عربي)

وان أهل هذه الطبقة العالية ، قدأ كذبوا القائلين بأن العربية لا يتسع صدرها للمعاني الجليلة ، وان العرب عنوا بالالفاظ أكثر من المعاني ، وما الالفاظ الا القوالب فقد قال بن جنى في الخصائص ، ردأ على من ادعى على العرب عنايتها بالالفاظ وأغفلها المعاني . ان العرب كما تمى بالفاظها ، وتصاحبها وتهذبها وتداعبها ، وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة ، وبالخطب أخرى ، وبالشجاع التي تلزمها وتكلف استمرارها ، فان المعاني أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأفخم قدرأ في نفوسها ، فأول ذلك عنايتها بالفاظها ، فانها لما كانت عنوان معانيها وطريقأ الى اظهار اغراضها ومرئيتها ، أصاحوها وبالغوا في تجييدها وتحسينها ، ليكون ذلك أوقع لها في السمع وأذهب في الدلالة على القصد . فاذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها وجموا حواشيها وهذبوها ، وصقلوا غروبها وأرهفوها ، فلا تريد ان العناية اذ ذلك انما هي بالالفاظ بل هي عندهم خدمة منهم للمعاني ، وتنويه بها ، وتشريف منها ، ونظير ذلك اصلاح الوعاء وتحسينه ، وتكوينه وتقديسه وانما المبنى بذلك منه الاحتياط للموعى ، وعليه جوازه بما يخطر نشره . . . وقال عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الاعجاز) لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه . ولا يكون لفظه أسبق الى سمعك ، من معناه الى قلبك وقولهم يدخل في الاذن بلا إذن ، فهذا مما لا يشك العاقل في انه يرجع الى دلالة المعنى على المبنى وانه لا يتصور أن يراد به دلالة اللفظ على معناه الذي وضع له في اللغة

قلنا وهذا ما جعله الموجودون من كتابنا المعاصرين نصب أعينهم فلم يقنعوا بالقشور بل اهتموا باللباب ، وعنوا بالقوالب وما تحويه ، وإذ قد أرهفوا أقلامهم لنقد الكتاتين المتوسطين كانوا أحرىء بأن يظهر واكتاباتهم خالية من الشوائب اللفظية والمعنوية وأدبنا في كل عصر ما خلا من تقاد ، يوازنون بين كلام المبرزين في

مشورهم ومنظومهم ، ينوهون بالكلام الشريف ، ويرذلون الساقط الوضيع
ومعولهم في أحكامهم على قوانين البلاغ والذوق السليم
للم تغفل عين العناية بعد القرن الرابع للهجرة عن الاقتباس عن الامم
الاخرى ولولم يكتف أهل الادب والعلوم بما حصل لهم وتفجروه وأضافوه حتى
القرن الثالث عشر أى لولم تقف بادبنا عند حد ما عرفنا تسمية قرون ، لكننا
اليوم كفرناسا بالشعر والادب نفهم منهما ما يفهمه الفرنسيين ، بل سائر أمم الغرب
الراقي من الشعوب الانجلوسكسونية واللاتينية والسلافية ، ولكننا ننال
جوائز نوبل في الادب على نحو ما يأخذها الهولنديون والسويديون على الاقل
ونحن معاشر العرب بعددنا نحو عشرة أضعاف كل أمة من تلك الامم الصغيرة
الممدنة .

وانا نرى هذا التجدد محسوساً في الشعر كما هو محسوس في النثر ، فقد جاء
محمود سامى البارودي أواخر القرن الماضى في شعره عربياً قحاً ، وتلاه اسماعيل
صبرى بشيء من أدب العصر فحل قييداً من قيوده ، وجاء بعدهما حافظ ابراهيم
بشعره الاجتماعى المرقص ففك قيود سابقيه ، وسيجىء صاحب السلسلة الرابعة
بما ليس الآن في الحسبان والتجديد والنشوء الاجتماعى . لا جرم ان للصحف
والمجلات اليوم يداً طولى في هذا التطور فانها تنقل الينا كل يوم شيئاً جديداً
عن آداب الامم الاخرى وكلما تطورت مدينتنا بطور العصر فالادب أول ما
يتطور فينا يعلم ذلك كل من تصفح سفرأ نشر قبل خمسين سنة ، وكتابا نشر
اليوم ، ومن تلا الصحف لعهدنا وعارضها بما كان يكتب من نوعها أوائل عهد
الصحافة العربية في مصر والشام وتونس ، يدرك الخطوات السريعة التي خطوناها
نحو المدنية ، وجددناها على ما يوافق اقليمنا وطباغنا ، والبسناها حلة من حللنا
الشرقية البديعة . وأساتذة هذا الشأن بمصر اليوم المقاد وطه حسين والمازني
وعبد القادر حمزة وغيرهم من حملة الاقلام الذين يقودون قراءهم الى سوق
عكاظ جديد وفي الشاميين كتاب من هذه الطبقة يطرسون على آثار كتاب
مصر ولا تعلم في العراق وتونس والجزائر أناساً يصدق عليهم تعريف المجددين
في الانشاء .

ربما يتساءل القارئ ، وقد بلغ به البحث الى هذه الجملة ، وهل كان النساء ياترنى بعيدات عن هذه الحركة الادبية على حين لم يكن في بغداد ولا الاندلس ولا في صدر الاسلام بعيدات عنها ؟ (راجع الجزء الخاص بالصحائيات من طبقات بن سعد الكبرى) و (بلاغات النساء) لابن طيفور وأخبار الاندلسيات في (نفع الطيب) فالجواب انهن شاركن بقدر اللزوم ، ولا يزال عددهن ينمو بنمو روح العلم فيهن ، فقديماً رأينا المحدثات والواعظات والمتفقيات والاديبات واليوم نرى الكاتبات والاديبات والباحثات والخطيبات فقد افتخرت مصر بنوع السيدة عائشة عصمت التيمورية شقيقة الاستاذ احمد تيمور باشا العالم المشهور ، ولها ديوان شعر سلس رقيق ، وجاءت بعدها السيدة ملك ناصف الملقبة بباحثة البادية وهي ابنة حفي ناصف شيخ الأدب في عصره وصاحبة كتاب (النساءيات) وكانت كاتبة مبدعة فهاجتها المنية وكان يرجى منها ان تقلب حياة المرأة المصرية رأساً على عقب . وقد حلت الكاتبة المشهورة السيدة ماري زيادة الملقبة بمي حياة ملك ناصف في سفر بديع دل على علو كعبها في الأدب وتحليل النفوس . وفي الشام ومصر اليوم زمرة من الكاتبات المجيدات المتشبعات بالآداب الغربية لا تحضرنى الآن أسماؤهن باجمعهن . والنساء عندنا في دور الفهم والتطور والافتباس .

ولا يسعنا ان نختم هذه العجالة قبل ان نوسل سلاماً طيباً الى كتابنا الشاميين في المهاجر ولا سيما في الامريكيتين فأنهم تشبعوا بالأدب الافرنجى فأخذوا يكتبون لقومهم هنا وهناك بلسان جديد من التجديد . بل أكثر من التجدد ، واشتهر منهم أمين الريحاني صاحب (الريحانيات) ولاملوك العرب وغيرهما من تأليفه وجبران خليل جبران وهو كاتب ومصور ولكن تصوير الكلام بالحروف يتعاضى عليه أحياناً أكثر من التصوير بالقلم والخطوط على ما يظهر ، فيبدو الغموض في تضاعيف سطره ومثال من ذلك كتابه (الأجنحة المتكسرة) ولكل منهما قراء ومعجبون بأدبهما ولو كتب لهما ان يرزقا حظاً من البيان العربي يوازي حظهما من الآداب الانجليزية اذا لجأ من شعرها المنشور ، وخيالها اللطيف ، مادة للمجددين في أدب لغتنا . وهناك بضعة من الكتاب نزلوا بممالك الجنوب

والشمال من أميركا فكتبوا وعلموا قومهم ولم يكتب لنا الاطلاع على عامة ما خطته
أناملهم ، ونعقته أفكارهم

ولا بأس من التصريح هنا برأى لنا خاص في الكتاب الاقدمين منهم والمحدثين
وربما كان في حملة الاقلام من لا يساهمنا هذا الرأي ، ويمدون حكماً من باب التهجم

على من عرفوا كلهم شهد الله بالفضل واغنوا غناءهم في جانب الآداب . ولكن
هو الرأي يصدره الصغير امام الكبير ولا اثم عليه ولا حرج . زيدان نقول ان

عمر الطالب يقصر عن استيعاب جميع ما كتبه المنشئون في هذه الملة تصفحاً
ودرساً . فالأولى ان يختار الزبدة ويأخذ الأهم فالأهم مما يعينه على تحسين ملكته

في البيان ، وما نخاله من حيث الاسلوب الا مخترع طريقته بنفسه ، متى تمت أدواته
اللازمة ، وأتقن مالا غنية عنه من نحو اللغة و صرفها و بيانها و بلاغتها . والأولى

الاقتصار في الدراسة على من أجمعت الأمة على تبريزهم في هذه الصناعة كهمرو
ابن بحر الجاحظ وعبد الله بن المقفع وعبد الحميد بن يحيى وسهل بن هرون وأحمد

ابن يوسف واضرابهم ممن كتبوا مع طبعهم غير متعلمين . وما قيل في الكتاب
يقال في الشعراء جاهليهم ومخضرميهم ومولديهم وهم بحمد الله كثيرون جداً

والأولى الاقتصار على بضعة من الشهود لهم بالاجادة المتناهية . أما أدب أهل
العصور المتأخرة فان الطالب يقرأه حب الاطلاع أو لاخذ مادة عن تاريخ الادب

في عصورهم وبعبارة أوجز يعتمد في البيان على القدماء من قبل الاسلام الى
أواخر القرن الرابع كما يأخذ العالوم عن المحدثين من أمم الحضارة وغيرهم

لاجرم ان الادب العربي قد اتسع أمامه مجال التجدد الآن وما حدث فيه
من التطور منذ نحو مائة سنة فكاد يلحقه بأدب الغربيين إلا قليلاً ، دليل على

قابلية هذه اللغة - بما فيها من الفصيح والمترادف والقلب والابدال ومالا تأباه
من التصريف والاشتقاق والوضع والدلالة والمجاز والكنائية - للتجدد في كل

عصر وبرهان على مرونتها الاخذ بالاصح على قاعدة الانتخاب الطبيعي مع مراعاة
قواعدها وروابطها التي استقرت باستقرار القرآن الكريم

ولذلك ساع لنا ان نقول : ان لغة القرآن صالحة للمدنية في كل زمان ومكان
وان أدبا عرف تاريخه منذ خمسة عشر قرناً هو من السعة بحيث لا يتسع مبحث

صغير كهذا لاستيعاب جرمه الكبير .

الخطابة عند العرب

(١) توطئة

دلتنا الحرب الحاضرة على كثير مما ينقصنا من العلوم والصناعات الشائعة عند الأمم الغربية وكانت فاشية في القديم عند أجدادنا . ومن ذلك صناعة الخطابة وهي من أجل العوامل في تربية النفوس أيام الحرب والسلام أو في بث دعوة أو سفارة بين متخاصمين أو متحابين واقناع يوم الحفل ، واستمالة الافكار الى رأى أو حزب في المجالس والمؤتمرات والجامع والجوامع ، لاستغنى عنها أمة دستورية يحكمها مجلس نوابها اذ أن التنمير من مسألة والتذكير باخرى لا يتم الا بقوة البيان ، وسلاطة اللسان ، وفصاحة الحججة ، وظهور المحجة

والسبب في قصورنا عن هذه الغاية طول عهدنا بالحكومة الاستبدادية المطلقة حتى اذا انقلبت الى حكومة شورية أحسنا بنقص في عامة مكونات الأمم ، وكان خطباؤنا المصارع يعدون على الاصابع في جميع أدوار مجلسنا النيابي والمبرز منهم من كتب له ان كان أستاذاً في مدرسة أو مدرساً في جامع ففتقت السن أهل هذه الطبقة وقليل ماهي على أيسر وجه لانها كانت على جانب من الفضل ، ومعرفة باصول المجالس ، أما أكثر النواب فكانوا بمزلهما ينبني لهم من أدوات الفهم والكلام ، والحرية فصاحة فضحتنا بقلة المتكلمين والمفكرين منا مع ان الخطابة مما أوجبه علينا الشريعة الاسلامية ، كما ظهر أمرنا ، وتبين عجزنا ، واستبدان أفلاستنا في مسائل العلم والتأليف

فقد كان بعضهم يوهمون ان طبائع الحكومة المطلقة وهي قائمة بكم الالسن وحجز الأقلام هي التي تحول دونهم وما يشتهون من انبعاث عامهم ونشر بحاثهم ودروسهم وظهور أثر فضلهم ، وأدبهم وتحقيقاتهم ، وربما غالى بعضهم فقال اختراعهم واكتشافهم وانهم لا يتوقعون الادور انطلاق ، حتى يظهروا ما كنته صدورهم من العلوم والفنون وهانحن نعيش في ظل الحكومة الدستورية ولم نشهد أثراً لغير من عرفوا من قبل بالفهم والعلم ، وجل ما اتصل بنا انه نشرت مباحث ومناقشات قلما تفيد أمة تريد النهوض من طريق العلم والعمل

نحن موقنون ان التبريز في الخطابة صعب ، ولكن بالتعلم والمماناة يصل المرء الى درجة حسنة في الجملة ، وفي العادة ان يكون النوابغ قلائل في كل فن فاذا عد في الأمة عشرة منهم في كل شأن ومطلب تمدغنية بعلمها وعقلها . ولاخطاط الخطابة الدينية في هذا العهد تأفف كثير من حضور الجمع حتى لا يسمعوها خطباً لا كتبها الألسن منذقرون وليس فيها شيء من النفع ، وثقلة المجيدين بل المتوسطين في هذه الصناعة غدا الناس يسمون خطيباً كل من يرفع عقيرته ولو كان جاهلاً عامياً ، بل أمياً غيبياً ، وعلى العكس رأينا في بعض البلاد خطباء بعض المساجد مجودين في الجملة يقولون ماله معنى في الوعظ والارشاد قد حببوا غشيان المساجد لمن كانوا لا يعرفونها ، وبتأثير الاخلاص والاجادة والكلام بحسب طبائع القوم ، وحاضر العصر ، كثر العاملون بأحكام الدين القاعمون بتكاليفه .

وبلغت حال الانحطاط في ضعف البيان . وفسولة الرأي والحجة ، بأكثر خطباء الجوامع ومنهم الأميون الذين لا يكادون يقرأون الكتاب ان أصبحت نصف خطبهم زهداً في الدنيا على غير طريقة السلف المشروعة ، والنصف الآخر دعاء يحفظونه لا يخرمون منه كلمة ثم هم يدعون بادعية مردودة في الشرع شأنهم في بيان فضائل الشهور والايام والبلدان والجوامع حتى خطب بعضهم وكان حشواً جليجوتياً في أعظم جامع في هذه البلاد عند ارادة الحث على تجديد بنائه فقال : ان الصلاة فيه تعادل ثلاثين ألف صلاة وأورد لذلك أحاديث لا تعرفها الا عقول الوضاعين والقصاصين ، ولطالما خطبوا ان من صام يوم كذا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر الى غير ذلك من البدع والفضول التي لم تأت بها شريعة الرسول وقد أنكرها أئمة الفقه والعلم من المتقدمين والمتأخرين ولا سيما شيخ الاسلام ابن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨) وابن قيم الجوزية (المتوفى سنة ٧٥١) وابن الحاج المتوفى سنة ٧٣٧

ولو كان الخطباء على جانب من فهم أسرار الشريعة ، ومعرفة طرق البلاغة ، وما يصلح الناس ، ماعالجوا من الموضوعات ما يرجع بالناس القهقري ، هذا في الخطب الدينية ، أما الخطب المدنية فهي أيضاً تنصرف على ذلك النحو نصفها تحميدات ومقدمات ، واعتذارات وسخافات ، واستطرادات منوعات ، ولو حصت

لما بقي منها الا التافه اليسير من الممانى . اما تأثيراتها في الافكار فضعيفة جداً .
ولعل هذا النقص البين يتلافاه أساتذة المدارس الابتدائية والوسطى والعلما
بتمرين طلبتهم أبدأ على الالتقاء وممارسة الكلم الفحل يوم الحفل وفي النوازل
والأمور العامة ، فينشأ من هذا الجيل فئات تسد هذا النقص المحسوس المشاهد
في طبقة رؤساء الدين ورؤساء الدنيا ويعرن الجميع على كتابة ما يريدون الخوض
فيه ، وعلى استظهاره أو القائه على نحو مسارات الامم الحديثة والامم القديمة
الراقية ، فينبغ فيها خطباء ووعاظ ومرشدون داووا جهالة شعوبهم بأساليب
القول الجزل ، والمنطق الخلاب والبرهان الساطع

وهانحن نحط لطلاب هذا الفن الطريق الذى سلكته العرب في تقوية ملكة
البيان ، معتمدين في النقل على أئمة هذا الشأن مشيرين الى تاريخ الخطابة ،
والمجودين فيها من أهل هذا اللسان ، قبل الاسلام وبعده تلميحاً للمقول واهابة
بها الى ما يصلحها ويزكيها بالبلاغة فنقول :

✕ (٤) حد الخطابة وأقسامها

نقل ابن رشد ان الخطابة صناعة تتكاف الاقتناع الممكن في كل مقولة من
المتولات وغايتها اقناع الجمهور فيما يحق عليهم ان يصدقوا به من الامور السياسية
والوظائف الشرعية وقال أبو البقاء : الخطابة هى الكلام النفسى الموجه به نحو
الغير للافهام : قالوا : وليس للخطابة موضوع خاص تبحث عنه بمعزل عن غيره
ولذلك كان على الخطيب ان يلم بكل صنف من المعارف فوجب عليه لبلوغ هذه
الأمنية ان يتبحر في العلم ويتفنن في ضروب الفهم حتى كان شيشرون خطيب
الرومان يوجب على الخطيب معرفة الفنون الأدبية والرياضيات والرسم والتصوير
والنقش والموسيقى وغير ذلك

ومعنى اقناع الجمهور ارضاء السامعين بالبرهان بحيث تكون البلاغة ملكة
في الخطيب وهناك يقتضى له من العلم الواسع ونفاذ البصيرة وحضور الذهن وقوة
التأثير وطلاقة اللسان ولطف البيان ما يستميل به الجمهور اليه في موضوع ويصرف
أذهانهم عن أمر ويوجه أنظارهم الى آخر ويجرضهم ويقنمهم ولذلك أدخل الحكماء
الخطابة الشعر في أقسام المنطق كما نقل عن ارسطولان المقصود منه أن يوصل الى

التصديق وأصولها عندهم ثلاثة الاول إيجاد المعاني الحقيقية بالاقناع من الادلة والآداب والثاني تنسيق المعاني أى سرد أجزائها على نظام واحد ليحكم تركيب الخطبة وارتباط أقسامها بحيث تكون أبين غرضاً واحسن فى النفوس وقمأو الثالث التغيير الذى يراعى فيه حال السامع لتصاغ له المعانى فى ألفاظ تنشر بها نفسه وتمتزج باجزاء فهمه . ويمكن ارجاع الخطابة الى قسمين : الخطابة المدنية والخطابة الدينية فالمدنية يتصرف تحتها كل ما فيه اصلاح المدينة والخطابة الدينية كل ما يرجع الى تطهير النفوس ليكون لاهلها مدنية فاضلة فى الدنيا وسعادة شاملة فى الاخرى الخطابة نوع من منشور الكلام يأخذ من النثر تصوير الحقائق وابلغها النفوس من دون آتاعاب ذهن ولا تكلف فى الاداء ومن النظم سلاسته وتأثيره فى النفس وقد كانت العرب فى جاهليتها تقدم الشاعر على الخطيب بفرط حاجتها الى الشعر الذى يقيد ما أرضها ويفخم شأنها ويهول على عدوها ومن غزاها ويهيب من فرسانها ويخوف من كثرة عددها ويهاجها شاعر غيرها . قال أبو عمرو بن العلاء : فلما كثر الشعراء واتخذوا الشعر مكسبة وتسرعوا الى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر . وكان لكل قبيلة شاعر كما كان لكل واحدة خطيب . الخطب والوصايا متقاربة يقصد بالاولى قوم لاعلى سبيل التعيين والتخصيص ، فتكون فى المشاهد والمجامع والايام والمواسم والتفاخر والتشاجر ، وامام العطاء والملوك والامراء والوفود ، وفى الصلح واشهار الحرب ، وفى الخطوب والنوازل ، أما الوصايا فتكون لقوم بعينهم فى زمن مخصوص على شىء منصوص وربما كانت من شخص لاهل بيته أو سيد لقبيلته عند حلول مرض أو أجل أو هجرة فى الارض

٣) الخطابة والانبياء

ذكروا ان العرب عنيت بالخطب فى جاهليتها أكثر من عنايتها بها فى الاسلام ولم يظهر لنا سر هذا لانا رأينا هدى النبيين والمرسلين على خلاف ذلك رأينا الرسول صلوات الله عليه لم يتعلم الشعر وما ينبغى له وكان سيدا لخطباء بلا مرأ ، وكلامه خطب وحكم وبسيرته الشريفة اقتدى كبار الصحابة والتابعين والخلفاء والملوك والمرشدين والعلماء العاملين ولكن كثر الشعراء أكثر من الخطب

لأن الشعر أقرب الى تقييد المآثر والتأثير ، ولانه يحتمل من الخيال والمحال ، ما لا يحتمله الخطاب بحال من الاحوال

قال صاحب (الريحان والريعان) : ان ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنشور ، ومزدوج الكلام ، أكثر مما تكلمت به من الموزون الا انه لم يحفظ من المنشور عشره ولا ضاع من الموزون عشره لان الخطيب انما كان يخطب في المقام الذي يقوم فيه في مشافهته الملوك أو الحالات أو الاصلاح بين العشائر أو خطبة النكاح فاذا انقضى المقام حفظه من حفظه ونسيه من نسيه بخلاف الشعر فانه لا يضيع منه بيت واحد : قال ولولا أن خطبة قس بن ساعدة كان سندها مما يتنافس الانام وهو ان النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي رواها عنه فاطار ذكرها ماتميزت عما سواها .

قال (الفلقشندي) : وليس ما أشار اليه لرفض النثر عندهم ، وقلة اعتناءهم به لسهولة حفظ الشعر وشيوعه في حاضرهم وباديهم وخاصهم وعامهم بخلاف الخطابة فانه لم يتعاطها منهم الا القليل النادر من الفصحاء المصاقع فلذلك عز حفظها وقل عنهم نقلها وقد كانت تقوم بها في الجاهلية سادات العرب ورؤساؤهم ممن فاز بقدم الفضل ، وسبق الى زرى المجد . ويخصون ذلك بالمواقف الكرام ، والمشاهد العظام ، والمجالس الكريمة ، والمجامع الحفيلة ، فيقوم الخطيب في قومه فيحمد الله ويثنى عليه ثم يذكر ما سئح له من مطابق قصده وموافق طلبه من وعظ يذكر ، أو فيخر ، أو اصلاح أو نكاح ، أو غير ذلك مما يقتضيه المقام

نعم ان الخطابة صناعة الرسل عليهم السلام لانهم يدعون الى الله ويكافون بارشاد الخلق وهذا يقتضى البلاغة والبيان المتناهي لذلك قال موسى : رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي . وذلك لانه كان به لثغة فخشى أن يعدها قومه عيبا ، ويلووا بوجوههم عن دعوته ، أما شعيب عليه السلام فقد سماه نبينا عليه الصلاة والسلام خطيب الانبياء لما ورد في الكتاب العزيز من أساوبه البديع في البيان وتلطفه في ابلاغ دعوته الى أهل مدين الذين غلبت عليهم الشقوة قال تعالى : (والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان اني أراكم بخير

واني أخاف عليكم عذاب يوم محيظ ، وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تمشوا في الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ . الى أن قال . ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي ورزقي منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه إن أريد الا الأصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب : وياقوم لا يجرمكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربي رحيم ودود

ولشرف الخطابة وتأثيرها في تطهير النفوس وأوجهها الشارع وسمها للمسلمين في مساجدهم كل جمعة وعيد وفي الحج أي في عرفة وأوجب على الحضور التزام الادب مع الخطيب بل علمهم حسن الاصغاء وفي الحديث : اذا قات لصاحبك والامام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت . ولم يعين الشارع للخطب الدينية أو خطب الجوامع والمواسم موضوعاً خاصاً بل جعلها مطلقة يتناول الخطيب الكلام من المناسبات الزمنية ويورد للحضور من هدى الشارع ما يهذب به أرواحهم ويهيب بهم الى بارئهم ، ويغرس فيهم مكارم الاخلاق ، ويطبعهم بطابع الفضائل ويحذرهم البغي والظلم ، ويستل بلطيف أسلوبه سخائمهم واحقادهم ، ويأمر بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويزين لهم العمل الصالح ويربأ بهم عن مهلكات الشهوات

(٤) البلاغة للعرب

قال الجاحظ : انا لا اعرف الخطب الا للعرب والفرس وأما الهند فانما هم معان مدونة ، وكتب مخلدة ، لا تضاف الى رجل معروف ، ولا الى عالم موصوف ، وانما هي كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة ، مذكرة ، وليونانيين فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه بكى اللسان ، غير موصوف بالبيان مع علمه بتميز الكلام وتفصيله . ومعانيه بخصائصه . وهم يزعمون ان جالينوس كان انطق الناس ، ولم يذكره بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة .

وفي الفرس خطباء الا ان كل كلام للفرس . وكل معنى للعجم . فانما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد وخلوة وعن مشاورة ومعاونة وعن طول التفكير ودراسة الكتب وحكاية الثاني علم الاول وزيادة الثالث في علم الثاني حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم وكل شيء للعرب فانما هو بديهية وارتجال ، وكأنه الهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا اجالة فكرة ولا استماعة ، وانما هو ان يصرف همه الى الكلام والى رجز يوم الخصام ، أو حين أن يمنح على رأس بئر أو يحدو ببعير أو عند المقارعة والمناقلة أو عند صراع أو في حرب فاهو الا أن يصرف همه الى جملة المذاهب ، والى العمود الذي يليه بقصد ، فتأتيه المعاني ارسالا ، وتنثال عليه الالفاظ انثيالاً ، ثم لا يقيد على نفسه ، ولا يدرسه أحداً من ولده

وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر . وهم عليه أقدر وأمهر ، وكل واحد في نفسه انطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا الى تحفظ ، أو يحتاجوا الى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا الاما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم ، من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب وان شيئاً الذي أبدينا جزء منه لبا المقدار الذي لا يعلمه الا من أحاط بقطر السحاب ، وعدد التراب ، وهو الذي يحيط بما كان والعالم بما سيكون .

« ونحن أبقاك الله اذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز ، ومن المنثور والاسجاع ، ومن المزدوج ومالا يزدوج ، فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق ، من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، والسبك والنمط الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ، ولا أرفعهم في البيان ، ان يقول في مثل ذلك الا في اليسير والنبيذ القليل ، ونحن لانستطيع ان نعلم ان الرسائل التي في أيدي الناس للفرس انها صحيحة غير مصنوعة وقديمة غير مولدة اذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وأبي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون ان يولدوا مثل تلك الرسائل ويسنعوا مثل تلك السير . وأخري انك متى أخذت

بيد الشعوبى فأدخلته بلاد الأعراب الخالص ، ومعدن الفصاحة التامة ، ووقفته على شاعر مفلق ، أو خطيب مصقع ، علم ان الذى قلت هو الحق وأبصر الشاهد عياناً فهذا فرق ما بيننا وبينهم فتفهم عنى فهمك الله ما أنا قائل «
هذه حجة الجاحظ فى أن العرب أفصح الأمم وقال أيضاً : « ان جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر ، والبدو والحضر ، على حزين منها الطوال ، ومنها القصار ، ولكل ذلك مكان يليق به ، وموضوع يحسن به ، ومن الطوال ما يكون مستويّاً فى الجودة ، ومشاكل فى استواء الصنعة ، ومنها ذوات الفقر الحسان ، والنتف الجياد ، وليس فيها بعد ذلك شىء يستحق الحفظ وإنما حفظها التخليد فى بطون الصحف . قال ومتى شا كل ابقاك الله ذلك اللفظ معناه ، وأعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وفقاً ، ولذلك القدر لفقاً ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قيناً بحسن الموقع ، وبانتفاع المستمع ، وأجدر ان يأمن جانبه من تناول الطاعنين ، ويحصى عرضه من اعتراض العيابين ، ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور مأهولة ، ومن كان اللفظ أيضاً كريماً فى نفسه ، متجيراً فى جنسه ، وكان سليماً من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبيباً الى النفوس ، واتصل بالاذهان ، والتحم بالعقول ، ودهشت اليه الاسماع ، وارتاحت له القلوب وخف على السن الرواة ، وشاع فى الآفاق ذكره ، وعظم فى الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الرخيص .

فان أراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة ، ومصالحة حال الخاصة ، وكان ممن يعم ولا يخص . وينصح ولا يغش ، وكان مشغوفاً بأهل الجماعة ، شنياً لأهل الاختلاف والفرقة ، جمعت له الحظوظ من أقطارها ، وسبقت اليه القلوب بازمتها ، وجمعت النفوس المختلفة الالهواء على محبته ، وجبات على تصويب ارادته ، ومن أطاره الله من معرفته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً ، حنت اليه المعانى ، وسلس له نظام اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع من كد التكلف ، وأراح قارىء الكتاب من علاج التفهم ، ولم أجدي فى خطب السلف الطيب ، والاعراب الاقحاح ، ألقاظاً مسخوطة ، ولا معاني مدخولة ، ولا طبعاً ردياً ، ولا قولاً مستكراً ، وأكثر ما نجد ذلك فى خطب المولدين البلديين المتكلفين ومن أهل الصنعة .

المتأديين سواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقنصاب أو كان من نتاج
التخير والتفكير اهـ

(٥) مكانة الخطابة وعيوب الخطباء

تقدم لك قانون البلاغة والخطابة الذي وضعه عمرو بن بحر الجاحظ في صفحة
وتدارسه يغني طالب الخطابة عن كتاب ، ورب مقالة خير من سفر ، ولقد عرفت
العرب مع ما كانت عليه من الغريزة الفائقة في البيان صعوبة الخطابة وانها لا يوفق
اليها إلا أفراد ولذلك كانت تكرم الخطيب أكثر من أكرام الشاعر . وقد
ضربت المثل بالخطيب في قولها . (الخطب مشوار كثير العثار) والمشوار هو
المكان الذي تعرض فيه الدواب . وقالوا « عقل المرء من فوق لسانه » وكانت تتعاير
بالفهاة وقلة الاجادة في البيان . وتقول : نعوذ بالله من الالهمال . ومن كلال
الغرب في المقال . ومن خطيب دائم السعال . قال بشر بن معمر في مثل ذلك
ومن الكباثر مقول متعجب جم التنحنح متعب ميهود
وقال شاعرهم يعيب بمض خطبائهم :

ملىء بهر والتفات وسعلة ومسحة عتنون وفتل الاصابع
وضربوا المثل بالبلاغة بسحبان وائل فقالوا فلان اخطب من سحبان كما
ضربوا المثل بالعي في الكلام بياقل فقالوا فلان أعبي من باقل . وقد جمع الجاحظ
في البيان والتبيين كثيراً من أخبار البلاغة والحصر والخطباء والبلغاء ومما قال :
وليس حفظك الله مضره سلاطة اللسان عند المنازعة وسقطات الخطل يوم
إطالة الخطبة بأعظم مما يحدث عن العي من اختلال الحجة ، وعن الحصر من فوق
درك الحاجة . والناس لا يعيرون الخرس . ولا يأمون من استولى على بيانه العجز
وهم يذمون الحصر . ويؤنبون العي . فان تكلفنا مع ذلك مقامات الخطباء .
وتعاطيا مناظرة البلغاء . تضاعف عليهما الدم . وترادف عليهما التأنيب . ومماتنة
(مماتلة) العي الحصر البليغ المصقع . في سبيل مماتنة المنقطع المفحم للشاعر المفلق
وأحدهما الووم من صاحبه . والالسنه اليه أسرع . وليس اللجلج « المتردد في
كلامه » والتمتام « من تسبق كلمته الى حنكه الاعلى والتمتمة رد الكلام الى التاء

والميم « والالتغ « الذى يحول لسانه من السين الى الثاء أو من الراء الى الغين «
والفأفاء « مردد الفاء « وذو الحبسة « الذى لا يسمع قوله « والحككة « الذى
لا يسمع صوته « والرثة « العجمة « وذو اللقف « عي بطيء الكلام اذا تكلم
ملاً لسانه فيه « والعجلة فى سبيل الحصر فى خطبته والعى فى مناقضته خصومه كما
أن سبيل المفجع عند الشعراء والبكىء عند الخطباء . خلاف سبيل المسهب الثرثار
والخطل المكثار

ثم اعلم أبقاك الله ان صاحب التشديق « تكلف البلاغة « والتقمير « التكلم
باقصى الفم « والتقمير « تقصير الكلام « من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلف
وشنعة التزيد . أعذر من عي يتكلف الخطابة . ومن حصر يتعرض لاهل الاعتياد
والدربة ومدار الأئمة ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف . وبيانا
يمارجه التزيد : الا ان تعاطى الحصر المنقوص مقام الدرب التام . أقبح من تعاطى
البليغ الخطيب . ومن تشادق الاعرابى القح . وانتحال المعروف ببعض الفزارة
فى المعانى والالفاظ وفى التعبير والارتجال انه البحر الذى لا ينزح . والغمر لا
يسير أيسر من انتحال الحصر المنخوب « الجبان « انه فى مسالخ « صفة « التام
الموفر والجامع المحكك وان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال : إياي
والتشادق . وقال . أبغضكم الى الثرثارون المتفهمون . وقال : من بدا جفا . وعاب
العدادين (الشديدي الصوت) والتزيديين فى جهاره الصوت . وانتحال سعة
الاشداق . ورحب العلاصم . وهدل الشفاء « ارساها الى أسفل « وأعلمنا ان
ذلك من أهل الوبر أكثر وفى أهل المدر أقل . فاذا عاب المدرى . بأكثر مما
عاب به الوبرى . فما ظنك بالمولد القروى . والمتكلف البلدى . فالحصر المتكلف
والعى التزيد الوم من البليغ المتكلف لأكثر مما عنده . وهو أعذر لان الشبهة
الداخلة عليه أقوى فمن أسوأ حالا أبقاك الله ممن يكون الوم من المتشادقين .
ومن الثرثارين المتفهمين . ومن ذكره النبي صلى الله عليه وسلم نصاً . وجعل
النهى عن مذهبه مفسراً . وذكر مقتله له وبغضه إياه

(٦) الخطابة ملكة كسبية وفطرية

الخطابة كالكتابة وقرض الشعر ملكة فطرية وملكة كسبية . اذا صاحبت

فيها الكسبية الفطرية جاء من الخطيب . كل قول عجيب . وقد كان دمرستينوس وهو أخطب خطيب عند اليونان — كما ان شيشرون أخطب خطيب عند الرومان خطب في الجمهور أول مرة ولم يحسن الالقاء لانه كان ألتع مثل واصل بن عطاء شيخ المهترلة وكان ضعيف الصوت لمحاول اصلاح ذلك وتمكن منه بوضع حصاة في فمه وانشاد أبيات وهو يركض على شاطئ البحر ويرتقى الروابي والآكام قال الجاحظ أخبرني محمد بن عباد وكان شاعراً راوية وطلابة للعلم علامة قال سمعت اباداود بن جرير يقول وقد جرى شيء من ذكر الخطب وتحبير الكلام واقتضابه ، وصعوبة ذلك المقام وأهواله فقال : تلخيص المعاني رفق ، والاستعانة بالغريب عجز ، والتشادق من غير أهل البادية بغض ، والنظر في عيون الناس عي ، ومس اللحية هلك ، والخروج مما بنى عليه أول الكلام أسهب ، قال : وسمته يقول : رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدربة ، وجناحها رواية الكلام وحليها الاعراب ، وبهاؤها تخير اللفظ ، والمحبة مقرونة بقلّة الاستكراه وذكر محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بلاغة بعض أهله فقال : اني لأكره ان يكون مقدار لسانه فاضلاً عن مقدار علمه ، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلاً على مقدار عقله ، قال أبو عثمان الجاحظ : هذا كلام شريف نافع ، فاحفظوا لفظه وتدبروا معناه ، ثم اعملوا ان المعنى الحقير الفاسد ، والدني الساقط يعيش في القلوب ، ثم يبيض ثم يفرخ ، فاذا ضرب بجرائه ، ويمكن بعروقه ، استفحل الفساد وبزل ، وتمكن الجهل وفرخ ، فعند ذلك يقوى دأؤه ، ويمتنع دواؤه ، ولأن اللفظ الهجين الرديء ، والمستكره الغبي ، أعلق باللسان ، وآلف للسمع . أشد التحاماً بالقلب ، من اللفظ النبیه الشريف ، والمعنى الرفيع الكريم ولو جالست الجهال والنوكي ، والسخفاء والحمقى ، شهراً فقط لم تنقذ من أضرار كلامهم ، وخيال معانيهم ، بمجالسة أهل البيان والمقل دهرأ ، ولأن الفساد أسرع الى الناس ، وأشد التحاماً بالطبع ، واللسان بالتعلم والتكلف ، وبطول الاختلاف الى العلماء ومدارسه كتب الحكمة ، يوجد لفظه ، ويحسن أدبه ، وهو لا يحتاج في الجهل الى أكثر من ترك التعلم ، وفي فساد البيان الى أكثر من ترك التخير

قال معاوية بن أبي سفيان لصحار بن عياش العبدي : ما هذه البلاغة التي فيكم قال : شيء تجيش به صدورنا ، فتقذفه على ألسنتنا ، فقال له رجل من عرض القوم : يا أمير المؤمنين هؤلاء بالبشر والرطب . أبصر منهم بالخطب ، فقال له صحار : اجل والله انا لنعلم ان الريح لتنقحه ، وان البرد ليهقده ، وان القمر ليصبغه ، وان الحر لينضجه

قال أبو عثمان : قال صاحب البلاغة والخطابة ، وأهل البيان وحب التبیین ، انما عاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المتشادقين والثرثارين ، والذي يتخلل بلسانه ، كما تتخلل الباقرة بلسانها ، والاعرابي المتشادق ، هو الذي يصنع بفكيه وشدقيه ما لا يستجيزه اهل الادب من خطباء أهل المدر ، فمن تكلف ذلك منهم فهو أعيب ، والذم له ألزم ، وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً يتمثلون بها الا لما فيها من المرافق والانتفاع ومدار العلم على الشاهد والمثل ، وانما حثوا على الصمت ، لان العامة الى معرفة خطأ القول ، أسرع منهم الى معرفة خطأ الصمت ، ومعنى الصامت في صمته أخفى من معنى القائل في قوله ، والا فالسكوت عن قول الحق ، في معنى النطق بالباطل ولعمري ان الناس الى الكلام لا أسرع ، لان في أصل التركيب ان الحاجة الى القول والعمل ، أكثر من الحاجة الى ترك العمل ، والسكوت عن جميع القول ، وليس الصمت كله أفضل من الكلام كله ، ولا الكلام كله أفضل من السكوت كله ، بل قد علمنا ان عامة الكلام ، أفضل من عامة السكوت ، وقد قال الله عز وجل ، سماعون للكذب أ كالون لاسجت . فجعل سمعه وكذبه سواء وقال الشاعر :

بنى عدى ألا ينهى سفهكم ان السفه اذا لم ينه مأمور

وقال الآخر :

فان انا لم أمر ولم أنه عنكما ضحككت له حتى يلج ويستشري

وكيف يكون الصمت انفع ، والا يثار له افضل ، ونفعه لا يكاد يجاوز رأس ص حبه ، ونفع الكلام يعم ويخص ، والرواة لم يرووا سكوت الصامتين ، كإروت كلام الناطقين ، وبالكلام أرسل الله انبياءه لا بالصمت ، ومواضع الصمت

المحمودة قليلة ، ومواضع الكلام المحموده كثيرة ، وطول الصمت يفسد البيان وقال ابو بكر بن عبد الله المزني : طول الصمت حبة كما قال عمر : ترك الحركة عقلة . واذا ترك الانسان القول ماتت خواطره ، وتبلدت نفسه ، وفسد حسه ، وكانوا يروون صبيانهم الارجاز ، ويعلمونهم المناقلات ، ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الاعراب ، لأن ذلك يفتق الالهة ، ويفتح الجرح (الصوت) ، واللسان اذا كثرت تحريكه رق ولان ، واذا اقللت تقليبه وأطلت اسكاته جسا وغلظ ، وقال عباة الجعفي : لولا الدربة وسوء العادة ، لأمرت فتياننا أن يمارى بعضهم بعضاً ، وأية جارحة منعتها الحركة ، ولم تمرنها على الاعمال ، أصابها من التعقد على حسب ذلك المنع

(٧) نصائح لطالب الخطابة

صبر بشر بن المعتمر بابراهيم بن جبلة الخطيب وهو يعلم فتيانهم الخطابة فوقف بشر فظن ابراهيم انه انما وقف ليستفيد أو ليكون رجلاً من النظارة فقال بشر : اضربوا عما قال صنفحاً ، واطووا عنه كشحاً ، ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنسيقه ، وكان أول ذلك الكلام : خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفراغ بالك ، واجابتها اياك ، فان قليل تلك الساعة أكرم جوهرأ ، وأشرف حسباً وأحسن في الاسماع ، وأحلى في الصدر ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين ، وعزة من لفظ شريف ، ومعنى بديع ، وأعلم ان ذلك أجدى عليك ، مما يعطيك يومك الا طول بالكد والمطاوله والمجاهدة ، وبالتكلف والمعاودة ، ومهما أخطأك لم يخطئك ان يكون مقبولاً قصداً ، وخفيفاً على اللسان سهلاً ، وكما خرج من ينبوعه ، ونجم من معدنه ، واياك والتوعر فان التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين أفاضك ، ومن أراع معنى كريماً ، فليتمس له لفظاً كريماً ، فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما ان تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله الى أن تكون أسوأ حالا منك قبل ان تلتمس اظهارهما ، وترتهن نفسك بملاستهما وقضاء حقهما ، وكن في ثلاث منازل ، فان أولى الثلاث ان يكون لفظك رشيقياً عذباً ، ونحماً سهلاً ،

ويكون معنك ظاهراً مكشوفاً ، وقريباً معروفاً ، أما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، وأما عند العامة ان كنت للعامة أردت ، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتصنع بأن يكون من معاني العامة ، وانما مدار الشرف على الصواب ، واحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال ، وكذلك اللفظ العامي والخاصي ، فان أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك ، لطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك ، على ان تفهم العامة معاني الخاصة ، وتكسوها الالفاظ الواسطة التي لا تلتطف عن الدهاء ، ولا تجفو عن الاكفاء ، فانت البليغ التام

قال بشر : فلما قرئت على ابراهيم قال لي : أنا أحوج الى هذا من هؤلاء الفتيان . قال أبو عثمان : اما أنا فلم أر قوماً قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب فانهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً واذا سمعتموني اذ كر العوام ، فاني لست أعنى الفلاحين والحشوة ، والصناع والباعة ، ولست أعنى الا كراد في الجبال ، وسكان الجزائر في البحار ، ولست أعنى من الامم مثل اليبس والطيلسان ، ومثل موقان وجيلان ، ومثل الزنج وأمثال الزنج ، وانما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع : العرب وفارس والهند والروم ، والباقون همج وأشباه الهمج . وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الامم لم يبلغوا منزلة الخاصة منا ، على أن الخاصة تتفاضل في الطبقات أيضاً .

قال بشر : فان كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسبح لك عند أول نظرك ، وفي أول تكلمك ، وتجد اللفظة التي لم تقع موقعها ، ولم تصر الى قرارها والى حقها من أما كتبها المقسومة لها ، والقافية لم تحل في مركزها ، وفي نصابها ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة في مكانها نافرة عن موضعها ، فلا تكرها على اغتصاب الاماكن والنزول في غير أوطانها ، فانك اذا لم تتعاط قريض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختبار الكلام المنثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد ، وان أنت تكلفتها ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ولا محكماً لسانك ، نصيراً بما عليك أو مالك ، عابك من أنت أقل عيباً منه ، ورأى من هو دونك انه فوقك

فان ابتليت بان تتكلف القول ، وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمع لك الطباع في أول وهلة ، وتعصى عليك بعد اجابة الفكرة ، فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه بياض يومك أو سواد ليلتك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فانك لا تعدم الاجابة والمواتاة ، ان كانت هناك طبيعة ، أو جريت من الصناعة على عرق ، فان تمنع ذلك عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ، ومن غير طول ايهال ، فالمنزلة الثالثة ان تتحول من هذه الصناعة الى أشهى الصناعات اليك وأخفها عليك ، فان لم تشبهه ولم تنازع اليه الا وبينكما نسب ، والشئ لا يحن الا الى ما يشاكله ، وان كانت المشاكلة قد تكون في طبقات لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود به مع المحبة والشهوة (٨) ما يجب على الخطيب وما لا يجب

قال بشر بن المعتمر : وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة من ذلك مقاماً ، حتى يقسم اقدار الكلام على اقدار المعاني ، ويقسم اقدار المعاني على أقدار المقامات ، واقدار المستمعين على اقدار تلك الحالات ، فان كان الخطيب متكلاماً تجنب ألفاظ المتكلمين كما أنه ان عبر عن شئ من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً كان أولى الالفاظ به ألفاظ المتكلمين اذ كانوا لتلك العبارات أفهم ، والى تلك الالفاظ أميل واليها أحسن وبها أشغف ، ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من كثير من البلغاء وهم تخيروا تلك الالفاظ لتلك المعاني ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الاسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف ، وقدوة لكل تابع

قالوا : وقبيح بالخطيب أن يقوم بخطبة العيد أو يوم السماطين أو على المنبر أو في سدة دار الخلافة أو في يوم جمع وحفل اما في اصلاح بين العشائر واحتمال دماء القبائل واستلال تلك الضغائن والسخائم فيقول كما قال بعض من خطب على منبر ضخيم الشأن رفيع المكان : ثم ان الله عزوجل بعد ان أنشأ الخلق وسواهم ومكن لهم لا شأهم فتلاشوا ولولا ان المتكلم افتقر الى أن يلتمظ بالتلاشى لكان

ينبغي أن يؤخذ فوق يده . وخطب آخر في وسط دار الخلافة فقال في خطبته :
وأخرجه الله من باب اللبسية فأدخله في باب الاليسية الخ . قال : وكما لا ينبغي ان
يكون اللفظ عامياً ساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً إلا أن
يكون المتكلم بدوياً أعرابياً فان الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس كما
يفهم السوقى رطانة السوقى ، وكلام الناس فى طبقات كما أن الناس أنفسهم فى طبقات
فمن الكلام الجزل والسخيف ، والمليح والحسن ، والقبيح والسميح ، والخفيف
والثقل ، وكله عربى ، وبكل قد تكلموا ، وبكل قد تمارحوا وتعايبوا
فان زعم زاعم انه لم يكن فى كلامهم تفاضل ، ولا بينهم فى ذلك تفاوت ،
فلم ذكروا العى والبكى ، والحصر والمفحم ، والخلل والمسهب ، والمتشدد
والمتفهم ، والمهازوالثرثار ، والمكثار والهزاز ، ولم ذكروا الهجر والهذر ،
والهذيان والتخليط ، وقالوا رجل تلقاة (كثير الكلام) وتلهاعة (متشدد)
وفلان يتلميع فى خطبته وقالوا فلان يخطىء فى جوابه ويحيل فى كلامه ويناقض
فى خبره ولو أن هذه الامور قد كانت تكون فى بعضهم دون بعض لما سمي
ذلك البعض والبعض الآخر بهذه الاسماء . قال أبو عثمان وأنا أقول انه ليس فى
الأرض كلام هو أمتع ولا أمتع ولا آنفق ولا ألد فى الاسماع ولا أشد اتصالا
بالعقول السليمة ولا أففق للسان ولا أجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث
الاعراب الفصحاء العقلاء العارفاء البلغاء

يروى ان مطرف بن عبد الله كان يقول : لا تطعم طعامك من لا يشتهي .
ويقول لا تقبل بحديثك على من لا يقبل عليك بوجهه . وقال عبد الله بن مسعود :
حدث الناس ما حدجوك باسماعهم ولحظوك بأبصارهم ، فاذا رأيت منهم فترة
فأمسك قال : وجعل ابن السماك يوماً يتكلم وجارية له حيث تسمع كلامه فلما
انصرف اليها قال لها : كيف سمعت كلامى قالت : ما أحسنه لولا انك تكثر ترداده
فقال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه قالت : الى أن يفهمه من لم يفهمه يكون
قد مله من فهمه . قال عباد بن عوام عن شعبة عن قتادة قال : مكتوب فى التوراة
لا يهاد الحديث مرتين . وسفيان بن عيينة عن الزهرى قال : إعادة الحديث أشد
من نقل الصخر . وقال بعض الحكماء : من لم ينشط لحديثك ، فارفع عنه مؤنة

الاستماع منك ، وجملة القول في الترداد أنه ليس فيه حد يحصره من العوام والخواص
قال ثمامة بن اشرس : كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، قد جمع الهدو والتهميل ،
والجزالة والحلاوة ، وافهماً يغنيه عن الاعادة ، ولو كان في الارض ناطق يستغنى
بمنطقه عن الاسارة لاستغنى جعفر عن الاشارة كما استغنى عن الاعادة وقال مرة :
مارأيت أحداً كان لا يتجسس ولا يتوقف ولا يتلجلج ولا يتنحنج ولا يرتقب
لفظاً قد استدعاه من بعد ولا يلتمس التخلص الى معنى قد تعصى عليه طلبه أشد
اقتداراً ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيى . وقال ثمامة : قات لجعفر بن يحيى
ما البيان : قال ان يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلي عن مفزك ، وتخرجه من
الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة والذي لا بد منه ان يكون سليماً من التكلف
بعيداً من الصنعة ، بريئاً من التعقيد غنياً عن التأويل
قال أبو عثمان : أعيب عندهم من دقة الصوت وضعف مخرجه وضعف قوته
ان يعترض الخطيب البهر والارتعاش والرعدة والعرق . قال أبو الحسن : قال
سفيان بن عيينة : تكلم صمصمة عند معاوية فمرق فقال معاوية : بهرك القول
فقال صمصمة : ان الجياد لضاححة بالماء . والفرس اذا كان سريع العرق وكان هشاً
(كثير العرق) كان ذلك عيباً وكذلك هو في الكثرة واذا أبطأ ذلك وكان قليلاً
قيل قد كبا وهو فرس كاب وذلك يجب أيضاً

(٩) لطالب الاجادة في خطبته

رأيت بماضى بعض العيوب التي يجب على الخطيب ان يربأ بنفسه عنها ذكره
أبو عثمان الجاحظ وهالك الآن قطعة أخرى له قال : قال بعض الربانيين من الادباء
وأهل المعرفة من البلغاء ممن يكره التشاوق والتعمق ، ويبغض الاغراق في القول ،
والتكلف والاجتلاب ويعرف أكثر أدواء الكلام ودواؤه وما يعترى المتكلم
من الفتنة بحسن ما يقول وما يعرض للسامع من الافتتان بما يسمع والذي يورث
الاقتدار من التهمك والتسلط والذي يمكن الحاذق المطبوع من التمويه للمعاني
والخلابة وحسن المنطق . قال في بعض مواعظه : أنذركم حسن الالفاظ وحلاوة
مخارج الكلام فان المعنى اذا اكتسى لفظاً حسناً ، وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً
ومنحه المتكلم قولاً متمشقاً صار في قلبك أحلى ولصدرك أملاً والمعاني اذا

كسيت الالفاظ الكريمة ، والبست الاوصاف الرفيعة ، تحولت في العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق اقدارها ، بقدر ما زينت ، وعلى حسب ما زخرفت ، فقد صارت الالفاظ في معنى المعارض ، وصارت المعاني في معنى الجوارى . والقلب ضعيف . وسلطان الهوى قوى . ومدخل خدع الشيطان خفى . فاذا ذكر هذا الباب ولا تنسه . وتأمله ولا تفرط فيه . فان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لم يقل للاحنف بعد ان احتبس حولا مجرماً (تاماً) ليستكثر منه وليبالغ في تصفيح حاله والتنفير عن شأنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان خوفنا كل منافق عليم . وقد خفت أن تكون منهم . الا لما كان راعه من حسن منطقته ومال اليه لما رأى من رفقه وقلة تكلفه قال الجاحظ : فالقصد في ذلك أن تجتنب السوقي والوحشى . ولا تجعل همك في تهذيب الالفاظ وشغلك في التلخيص الى غرائب المعاني وفي الاختصار بلاغ وفي التوسط مجانبة للوعورة وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه

وقد رد الجاحظ على من زعم ان البلاغة ان يكون السامع يفهم معنى القائل ، وجعل الفصاحة واللاكنة والخطأ والصواب والاعلاق والابانة والملحون والمعرب كله سواء وكله بيانا قال : وكيف يكون ذلك كله بيانا ولولا طول مخالطة السامع للمعجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه ونحن لم نفهم عنه الا للنقص الذى فينا وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معاني هؤلاء باكمالهم (؟) كما لا يعرفون ركاكة الرومى والصقلبى وان كان هذا الاسم انما يستحقونه بأننا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم فنحن قد نفهم بمجموعة الفرس كثيراً من حاجاته ونفهم بمواء السنور كثيراً من ارادته وكذلك الكلب والحمار والصبى الرضيع

قال : وكانوا يمدحون شدة المارضة وقوة السن وظهور الحجة ، وثبات الجهاد ، وكثرة الريق ، والعلو على الخصم ، ويهجون بخلاف ذلك . ثم قال : وهم وان كانوا يحبون البيان والطلاقة والتجبير والبلاغة والتخلص والرشاقة فانهم كانوا يكرهون السلاطة والهذر . والتكلف والاسهاب . والاكثر لما في ذلك من التزيد والمباهاة واتباع الهوى . والمنافسة فى العلو والتقدير . وكانوا يكرهون

الفضول في البلاغة لان ذلك يدعو الى السلاطة . والسلاطة تدعو الى البذاء .
وكل مرآة في الارض فانما هو من نتاج الفضول . ومن حصل كلامه وميزه .
وحاسب نفسه وخاف الأثم والذم . اشفق من الفرارة . وسوء العادة .
وخاف ثمرة العجب . وهجنة القبح . وما في حب السمعة من الفتنة . وما في الرياء
من مجانبه الا خلاص

قال : وكانوا يأمرون بالتبين والتثبت . وبالتحرز من زلل الكلام . ومن زلل
الرأى ومن الرأى الدبرى . والرأى الدبرى هو الذى يعرض من الصواب بعد
مضى الرأى الاول وفوت استدراكه . وكانوا يأمرون بالتجلم والتعلم وبالتقدم
في ذلك أشد التقدم قال : وأنا أوصيك ان لاتدع التماس البيان والتبين . ان
ظننت ان لك فيهما طبيعة . وانهما يناسبانك بعض المناسبة . ويشا كلانك في بعض
المشاكله ولا تهمل طبيعتك فيستولى الاهمال على قوة القرينة . ويستبد بها سوء
العادة . وان كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ في الخطابة والبلاغة .
وبقوة المنة يوم الحفل . فلا تقصر في التماس أعلاها سورة . وأرفعها في البيان
منزلة ولا يقطع عنك تهيب الجهلاء . وتخويف الجبناء . ولا تصرفك الروايات
المعدولة عن وجوهها . والاحاديث المتناولة على أقبح مخارجها . فان أردت ان
تتكلف هذه الصناعة . وتنسب الى هذا الادب . فقرضت قصيدة . أو حبرت
خطبة . أو ألقت رسالة ، فإياك ان تدعوك ثققت بنفسك ويدعوك عجبك بشمرة
عقلك ، الى ان تنتحله وتدعيه . ولكن اعرضه على العلماء في عرض رسائل أو
أشعار أو خطب . فان رأيت الاسماع تصغى له . والعيون تمدج اليه . ورأيت
من يطلبه ويستحسنه . فانتحله وان كان ذلك في ابتداء أمرك أو في أول تكلفك
فلم تر طالباً ولا مستحسنناً فلمله أن يكون ما دام ريضاً أن يحل عندهم محل
المتروك فان عاودت أمثال ذلك مراراً فوجدت الاسماع عنه منصرفة والقلوب
لاهية . نخذ في غير هذه الصناعة . واجعل رائدك الذى لا يكذبك حرصهم عليه
أو زهدهم فيه . قال : وقد يكون الرجل له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة
في الكلام ويكون له طبيعة في التجارة وليس له طبيعة في الفلاحة . ويكون له
طبيعة في الحذاء . أو في التعبيرات في القراءة بالالخان وليس له طبيعة في الغناء

وان كانت هذه الانواع كلها ترجع الى تأليف اللحن ويكون له طبيعة في الناي ، وليس له طبيعة في السرناي ، ويكون له طبيعة في قصبة الراعي . ولا يكون له طبيعة في القصبتين المضمومتين . ويكون له طبع في صناعة اللحن . ولا يكون له طبع في غيرها ويكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والاسجاع . ولا يكون له طبع في قرص بيت شعر . ومثل هذا كثير جداً .

وقال ليس في الارض كلام هو أمتع ولا أنفع . ولا آتق ولا ألد في الاسماع ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة . ولا أفتق للسان . ولا أجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء والعلماء البلغاء وقد أصاب القوم في عامة ما وصفوا إلا اني أزعم أن سخييف الالفاظ مشا كل لسخييف المعاني وقد يحتاج الى السخييف في بعض المواضع . وربما أمتع بأكثر من أمتع الجزل الفخيم ومن الالفاظ الشريفة الكريمة من المعاني . كما ان النادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من النادرة الحارة جداً وانما الكرب الذي يختم على القلوب ويأخذ بالانفاس النادرة الفاترة التي هي لا حارة ولا هي باردة . وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط وانما الشأن في الحار جداً والبارد جداً وكان محمد ابن عباد ابن كاسب يقول : والله لفلان أثقل من مغن وسط وأبغض من ظريف وسط . قلنا وهذا يشبه ما قاله لابروبير في كتابه الأخلاق : من الاشياء ما لا يطاق فيه التوسط : الشعر والموسيقى والتصوير والخطاب العام .

قال اسحق بن حسان بن فوهة : لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد ، سئل ما البلاغة قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجري في أمور كثيرة ، منها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الاشارة ، ومنها ما يكون في الحديث ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون ابتداءً ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل . فعامية ما يكون من هذه الابواب الوحي فيها ، والاشارة الى المعنى ، والايجاز هو البلاغة فاما الخطب بين السماطين ، وفي اصلاح ذات البين ، فالأكثر في غير خطل ، والاطالة في غير أملال ، وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما ان خير أبيات الشعر البيت الذي اذا سمعت صدره عرفت قافيته ،

كأنه يقول : فرق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العمد وخطبة الصلح وخطبة المذاهب حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه فانه لاخير في كلام لا يدل على ممناك ، ولا يشير الى مغزاك ، والى العمود الذي اليه قصدت ، والغرض الذي اليه نزعت قال فقييل له : فان مل المستمع الاطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف . قال : اذا أعطيت لكل مقام حقه وقت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الخاسد والعدو ، فانه لا يرضيهما شيء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك ورضا جميع الناس شيء لا ينال .

١٠) خطباء الجاهلية والاسلام

قال الجاحظ في الخطباء من يكون شاعراً ويكون اذا تحدث أو وصف أو احتج بليغا مفوها بينا ، وربما كان خطيبا فقط وشاعراً فقط ، وبين اللسان فقط ، ومن الشعراء الخطباء الانبياء الحكماء قس بن ساعدة الايادي والخطباء كثير والشعراء أكثر منهم . ومن يجمع الخطابة والشعر قليل . ومنهم عمرو ابن الأهتم المنقري وهو المكحل . ومن الخطباء الشعراء البعيث المجاشعي واسمه خدش بن بشر بن لبيد . ومن الخطباء الشعراء الكميث بن زيد لاسدي وكنيته أبو المستهل ومن الخطباء الشعراء الطرماح ابن حكيم الطائي وكنيته أبو نقر . ومنهم عمران بن حطان وكنيته أبو شهاب رئيس القعدة من الصفرية وصاحب فتياهم ومقرعهم عند اختلافهم ومنهم دغفل بن حنظلة النسابة الخطيب العلامة . ومنهم القعقاع بن شور . ومنهم نصر بن سيار أحد بني ليث بن بكر صاحب خراسان . ومنهم زيد بن جندب الايادي وعجلان بن سحبان الباهلي وهو سحبان وائل وخطيب العرب

ومن الشعراء العلماء أعشى همدان ومن الشعراء الخطباء عمران بن عصام العرفي ومن خطباء الامصار وشعراهم والمولدين منهم بشار الاعمي وهو بشار ابن برد وكنيته أبو معاذ . ومن الخطباء الشعراء ومن يؤلف الكلام الجليل ويصنع المناقلات الحسان ويؤلف الشعر والقصائد الشريفة مع بيان عجيب ، ورواية كثيرة ، وحسن دل واشارة ، عيسى بن يزيد بن دأب أحد بني ليث

ابن بكر وكنيته أبو الوليد . ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتابي وكنيته أبو عمرو . ومن جمع الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة ، والسير الحسان المولدة ، والاخبار المدونة سهل بن هرون بن راهبيوني الكاتب صاحب كتاب ثعلة وعقرة في معارضة كتاب كيلة ودمنة وكتاب الاخوان وكتاب المسائل وكتاب الخزومي والهدلية وغير ذلك من الكتب . ومن الخطباء الشعراء على بن ابراهيم بن جبلة بن مخزومة

ذكر الجاحظ ثمامة بن اشرس فقال : ما علمت انه كان في زمانه قروي ولا بلدي بلغ من حسن الافهام مع قلة عدد الحروف . ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه وكان لفظه في وزن اشارته ، ومعناه في طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه الى سمك ، باسرع من معناه الى قلبك . قال بعض الكتاب : معاني ثمامة الظاهرة في ألفاظه الواضحة في مخرج كلامه ، كما وصف الخريجي شعر نفسه في مديح أبي دلف حيث يقول :

له كلم فيك معقولة ازاء القلوب كركب وقوف

كان الفضل بن عيسى الرقاشي من أخطب الناس وكان متكلماً وكان قاصاً مجيداً وكان يجلس اليه عمرو بن عبيد وهشام بن حسان وأبان بن أبي عياش وكثير من الفقهاء وهو رئيس الفضيلية واليه ينسبون : وكان يزيد بن أبان عم الفضل بن عيسى ابن أبان الرقاشي من أصحاب أنس والحسن كان يتكلم في مجلس الحسن وكان زاهداً عابداً وعالماً فاضلاً وكان خطيباً وكان قاصاً مجيداً . قال أبو عبيدة : وكان أبوهم خطيباً وكذلك جدهم . وكانوا خطباء الاكاسرة فلما سبوا وولد لهم الاولاد في بلاد الاسلام وفي جزيرة العرب نزعهم ذلك العرق فقاموا في أهل هذه اللغة كما قامهم في أهل تلك اللغة وفيهم شعر وخطب وما زالوا كذلك حتى أصهر الغرباء اليهم ففسد ذلك العرق ، ودخله الخور . ومن الخطباء زيد بن علي بن الحسين وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ، وكان شاعراً بيناً ، وخطيباً لسنياً . ومن أهل الدهاء والنكره ، ومن أهل اللسن واللقن ، والجواب العجيب ،

والكلام الصحيح . والامثال السائرة ، والمخارج العجيبة ، هند بنت الحسن وهي الزرقاء وجمعة بنت حابس

ومن الخطباء خالد بن سلمة المخزومي من قريش . وأبو ماضر وسالم وقد تكلم عند الخلفاء . ومن خطباء بني أسيد الحكم بن زيد بن عمير وقد رأس ومن أهل السن منهم البيان الحجاج بن عمير بن زيد .

ومن الخطباء سعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية قبيل لسعيد بن المسيب من أبلغ الناس : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فليل له : ليس عن هذا نسألك قال : معاوية وابنه وسعيد وابنه وما كان ابن الزبير بدونهم ولكن لم يكن لكلامه طلاوة مقبولة . فمن العجب ان ابن الزبير ملأ دفاتر العلماء كلاماً . وهم لا يحفظون لسعيد بن العاصي وابنه من الكلام الا ماله بال

ومن الخطباء عمرو بن سعيد وهو الأشدق وسعيد بن عمرو بن سعيد وكان نسباً خطيباً وأعظم الناس كبراً وهو خطيب ابن خطيب ابن خطيب . ومن الخطباء سهيل بن عمرو الأعم أحد بني حسل بن معيص . وعبد الله بن عروة ابن الزبير قالوا وكان خالد بن صفوان يشبه به وما علمت انه كان في الخطباء أحد أجود خطباً من خالد بن صفوان وشيب بن شيبه الذي يحفظ الناس ويدور على ألسنتهم من كلامهما وما علمت ان أحداً ولد لهما حرفاً واحداً

ومن النساين العلماء عتبة بن عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وكان من ذوى الرأي والدهاء وكان ذا منزلة من الحجاج بن يوسف وعمر بن عبد الرحمن خامس خمسة في الشرف وكان هو الساعى بين الازد وتميم فى الصلح . ومن بنى الحرقوس شعبة بن القلم . وكان ذا لسان وجواب وعارضة وكان وصافاً فصيحاً وبنوه عبد الله وعمر وخالد كلهم كانوا فى هذه الصنعة غير أن خالداً كان قد جمع بلاغة اللسان والعلم والحلاوة والظرف وكان الحجاج لا يصبر عنه

ومن بنى أسيد بن عمرو بن تميم أبو بكر بن الحكم كان نسباً راوية شاعراً وكان أحلى الناس لساناً وأحسنهم منطقاً وأكثرهم تصرفاً ومنهم معل بن خالد أحد بنى أمار بن الهجيم وكان نسبة علامة راوية صدوقاً مقلداً ومنهم من بنى العنبر ثم من بنى عمرو بن جندب أبو الخنساء عباد بن كسيب وكان شاعراً علامة ورواية

نسابة وكانت له حرمة بابي جعفر المنصور ومنهم عمر بن خولة كان ناسباً خطيباً وراويّة فصيحاً من ولد سعيد بن العاصي والذي أتى سعيد بن المسيب ليعلمه النسب هو اسحق بن هشام الخزومي ومن خزاعة بن مازن أبو عمرو بن العلاء وأخوه أبو سفيان ومنهم أبو نوفل بن أبي عقرب كان علامة ناسباً خطيباً فصيحاً وهو رجل من كنانة أحد بني عريج ومن بني كنانة ثم من بني ليث ثم من بني الشداخ يزيد بن بكر بن دأب وكان يزيد عالماً ناسباً وراويّة شاعراً . وولد يزيد يحيى وعيسى وهو الذي يعرف في العامة بابن دأب وكان من أحسن الناس حديثاً وبياناً وكان شاعراً راوية وصاحب رسائل وخطب وكان يجيدها جيداً . وكان أبو الاسود الدؤلي واسمه ظالم بن عمرو بن جندل ابن سفيان خطيباً عالماً وكان قد جمع شدة العقل ، وصواب الرأي ، وجودة اللسان ، وقول الشعر والظرف ، ومنهم زياد بن ظبيان التيمي العائشي وكذلك ابنه عبيد الله كان أفتمك الناس ، وأخطب الناس . ومنهم صعصعة بن صوحان من خطباء الخوارج وعبيد الله بن زياد ويضرب به المثل . وكان عثمان بن عروة أخطب الناس . وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً ، وفصيحاً جامعاً ، وجيه الرأي كثير الأدب ، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء

ومن خطباء قریش خالد بن سلمة الخزومي . ومن خطباء العرب عطارد بن حاجب ابن زرارة وهو كان الخطيب عند النبي صلى الله عليه وسلم . ومن الخطباء عون ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود وكان مع ذلك راوية ناسباً شاعراً . وكان الجارود ابن أبي سبرة ويكنى أبا نوفل من أئین الناس وأحسنهم حديثاً وكان راوية علامة شاعراً مفلحاً . ومن الخطباء الذين لا يضاھون ولا يجارون عبد الله بن عباس ذكره حسان بن ثابت فقال :

إذا قال لم يترك مقالا لقائل بلنقطات لا ترى بينها فضلا
كفى وشفي ما في النفوس ولم يدع لدى أربة في القول جداً ولا هزلا
سموت الى العليا بغير مشقة فنلت ذراها لا دنيا ولا وغلا

ومن الخطباء بني هاشم أيضاً داود بن علي وكان يكنى أبا سليمان . وكان أنطق الناس وأجودهم ارتجالاً واقتضاباً للقول ويقال انه لم يتقدم في نجيب خطبة قط

وله كلام كثير معروف محفوظ . ومنهم عبد الله بن الحسن . ومن خطباء بني هاشم ثم من ولد جعفر بن سليمان سليمان بن جعفر والى مكة قال المكي : سمعت مشايخنا من أهل مكة يقولون انه لم يرد عليهم أمير منذ عقلوا الكلام الا وسليمان أبين منه قاعداً ، واخطب منه قائماً . وكان داود بن جعفر اذا خطب اسحنفر (مضي مسرعاً فلم يرد شئ) وكان في لسانه شبيه بالرائة وكان أيوب فوق داود في الكلام والبيان ولم يكن له مقامات داود في الخطب . وكان اسماعيل بن جعفر من أدق الناس لساناً ، وأحسنهم بياناً

ومن خطباء بني هاشم جعفر بن حسن بن الحسين بن علي وكان أحد من ينازع زيدا في الوصية فكان الناس يجتمعون ليسمعوا مجاوباتها فقط وجماعة من ولد العباس في عصر واحد لم يكن لهم نظراء في اصالة الرأي ، وفي الكمال والجلالة ، وفي العلم بقريش والدولة ، ورجال الدعوة ، مع البيان العجيب ، والغور البعيد والنفوس الشريفة ، والاقدار الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء ، وفوق أصحاب الاخبار ، وكانوا يجلون عن هذه الاسماء ، الا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك . منهم عبد الملك ابن صالح وعبد الله بن صالح والعباس بن محمد واسحق ابن عيسى واسحق بن سليمان وأيوب بن جعفر هؤلاء كانوا أعلم بقريش وبالذولة ورجال الدعوة من المعروفين برواية الاخبار . وكان عبد الله بن علي وداود بن علي يعدلان بامة من الامم . وهن مواليهم ابراهيم ونصر ابنا السندي فاما نصر فكان صاحب أخبار وأحاديث وكان لا يعدو حديث ابن الكلابي والهيثم . وأما ابراهيم فانه كان رجلاً لا نظير له وكان خطيباً ، وكان ناسباً ، وكان فقيهاً . وكان نحوياً عروضياً ، وحافظاً للحديث راوية للشعر شاعراً ، وكان نغم الالفاظ ، شريف المعاني وكان كاتب القلم كاتب العمل .

ومن خطباء تميم جعدي وكان خطيباً راوية ومن ولد المنذر عبد الله بن شبرمة ابن طفيل بن هبيرة بن المنذر وكان فقيهاً عالماً قاضياً ، وكان راوية شاعراً ، وكان خطيباً ناسباً ، وكان حاضر الجواب مفوهاً ، وكان لاجتماع هذه الخصال فيه يشبه بهامر الشعبي وكان يكنى أبا شبرمة . ومن الخطباء المشهورين في العوام والمقدمين في الخواص خالد بن صفوان الاهتمي . ومن خطباء بني ضبة حنظلة بن ضرار

وقد أدرك الاسلام وطال عمره حتى أدرك وقمة الجمل ومن خطباء بنى ضبة
وعلمائهم مثجور ابن غيلان خرشة وكان مقدماً في المنطق
ومن خطباء الخوارج حبيب بن جدره وقطري بن الفجاءة وله خطبة طويلة
مشهورة وكلام كثير محفوظ . ابن صديقة وهو القاسم بن عبد الرحمن بن صديقة
وكان صغرياً خطيباً ناسباً ويشوبه ببعض الظرف والهزل ومن علماء الخوارج
شبيب بن غرزة الضبعي صاحب الغريب وكان راوية خطيباً وشاعراً ناسباً ومن
الخطباء المذكورين روح ابن زنباع والحجاج بن يوسف . وعبد الاعلى بن عبد الله
ابن عامر ويزيد بن عبد الله بن رؤبة الشيباني ومن خطباء الخوارج وعلمائهم
عمران بن حطان ومن علمائهم حبيب بن خدره الهلالي . ومنهم المقعطل قاضي
عسكر الازارقة أيام قطري ومنهم عبيدة بن هلال اليشكري ومنهم الضحاك بن قيس
ومنهم نصر بن فلحان

ومن الخطباء معبد بن طوق العنبري . ومن خطباء عبيد القيس مصقلة بن
رقبة وكرب بن رقبة . ومن الخطباء قيس بن خارجة . وكان أبو عمار الطائي
خطيباً مندهج كلها . ومن الخطباء أيوب بن القرية . ومن خطباء غطفان في الجاهلية
خويلد بن عمر والعشراء بن جابر بن عقيل بن هلال بن سمي بن مازن بن فزارة
وخويلد خطيب يوم الفجار . ومن الخطباء الواح بن خيشمة ومن أصحاب الاخبار
والنسب والخطب والحكام عند أصحاب النفورات بنو الكواء . ومن الخطباء
القدماء كعب بن لؤي وكان يخطب العرب عامة ويحضر كنانة خاصة على البر فلما
مات أكبروا موته فلم تنزل كنانة تؤرخ بموت كعب بن لؤي الى عام الفيل

ومن الخطباء الايبياء العلماء الذين جروا من الخطابة على اعراق قديمة شبيب
ابن شيبه . قال أبو الحسن : كان أبو بكر خطيباً . وكان عمر خطيباً . وكان عثمان
خطيباً . وكان علي خطيباً . وكان من الخطباء معاوية ويزيد وعبد الملك ومعاوية
ابن يزيد ومروان وسليمان بن الوليد ووليد بن يزيد والوليد بن عبد الملك وعمر
ابن عبد العزيز . ومن خطباء بنى هاشم زيد بن علي وعبد الله بن حسن وعبد الله
ابن معاوية خطباء لا يجارون . ومن خطباء النساك والعباد الحسن بن أبي الحسن
البصري . ومطرف بن عبد الله الحرشي . ومورق العجلي . وبكر بن عبد الله المزني .

ومحمد بن واسع الأزدي ويزيد بن أبان الرقاشي ومالك بن دينار السامي . وليس الأمر كما قال في هؤلاء القاص المجيد ، والواعظ البليغ ، وذو المنطق الوجيز ، فاما الخطب فاننا لانعلم أحداً يتقدم الحسن البصرى فيها وهؤلاء وان لم يسموا خطباء فان الخطيب لم يشق غبارهم

ومن الخطباء من بنى عبد الله بن غطفان أبو البلا وكان راوية ناسباً . ومنهم هاشم بن عبد الاعلى الفزارى . ومن الخطباء حفص بن معاوية الغلابي ومن بنى هلال بن عامر زرعة بن ضمرة وكان ابنه النعمان بن زرعة بن ضمرة من أخطب الناس . ومن الخطباء عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي . ومن خطباء بنى تميم عمرو ابن الاهتم وكان يدعى المكحل لجماله لم يكن في بادية العرب في زمانه أخطب منه ومن بنى منقر عبد الله بن الاهتم وكان خطيباً ذا مقامات ووفادات . ومنهم صفوان بن عبد الله بن الاهتم وكان خطيباً رئيساً وابنه خالد بن صفوان . ومنهم عبد الله بن عبد الله بن الاهتم وقد ولي خراسان ووفد على الخلفاء وخطب عند الملوك ومن ولده شبيب بن شيبه بن عبد الله بن عبد الله بن الاهتم وعبد الله بن عبد الله بن عبد الله بن الاهتم وخطبان بن الاهتم . ومن خطبائهم محمد الاحول بن خاقان وكان أخطب بنى تميم . ومن خطبائهم معمر بن خاقان . ومن خطبائهم مؤمل ابن خاقان ومن خطبائهم خاقان بن المؤمل بن خاقان . ومن بنى منقر الحكم بن النصر وهو أبو العلاء المنقرى . ومن خطباء بنى صريم ابن الحارث الخزرج بن الصدى . ومن خطباء بنى تميم ثم من مقاعس عمارة بن أبي سليمان . ومن ولد مالك بن سعيد عبد الله وخير ابنا حبيب ومن ولد مالك بن سعيد عبد الله والعباس ابنا رؤبة وكان العباس علامة عالماً ناسباً راوية وكان عبد الله أرجز الناس وأفصحهم وكان يكنى أبا الشعثاء وهو العجاج . ومن خطباء هذيل أبو الليث الهذلي أسامة بن عمير . ومنهم أبو بكر الهذلي كان خطيباً قاصاً وعالماً بيناً وعالماً بالأخبار والآثار

ومن خطباء عمان مرة ابن فهم التليد . ومن العتيك بشر بن المغيرة بن أبي صفرة ، ومن خطباء اليمن ثم من حمير الصباح بن شقى الحمري كان أخطب العرب ومنهم ثم من الأنصار قيس بن الشماس . ومنهم ثابت بن قيس بن الشماس خطيب النبي ، ومنهم روح بن زنباع ، ومن خطبائهم الأسود بن السكذاب كعب

العنسى ، وكان طليحة خطيباً وشاعراً وسجاعاً كاهناً وناسباً ، ومن خطباء الانصار بشر بن عمرو بن محض وهو أبو عمرة الخطيب ومنهم سعد بن الربيع ، ومن القدماء في الحكمة والخطابة والرياسة عبيد بن شرية الجرهمي وأسقف نجران واكيدر صاحب دومة الجندل وأفيهي نجران وذرب بن حوط وعليم بن جناب وعمرو بن ربيعة وهو لحي بن حارثة بن عمرو مزنيقا وجذيمة بن مالك الأبرش ، ومن القدماء ممن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنكراء لقمان بن عاد ولقيم بن لقمان ومجاشع بن دارم وسليط بن كعب بن ربوع سموه بذلك لسلاطة لسانه واؤى بن غالب وقس بن ساعدة وقس بن كلاب . ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكرم بن صيفي وربيعه بن حذار وهرم بن قطبة وعامر بن الظرب ولبيد بن ربيعة

ومن النساك والزهاد من أهل البيان عامر بن عبد قيس وصلة بن أشيم وعثمان ابن أدهم وصفوان بن محرز والاسود بن كلثوم والربيع بن خيثم وعمرو بن عتبة ابن فرقد وهرم بن حيان ومورق العجلي وبكر بن عبد الله بن الشيخير الحرشي ومالك ابن دينار وحبيب أبو محمد ويزيد الرقاشي وصالح المزني وأبو حازم الاعرج وزباد مولى عياش بن أبي ربيعة وعبدالواحد بن زيد وحيان أبو الاسود ودهثم أبو العلاء ومن النساء رابعة القيسية ومعاذة العدوية امرأة صلة بن هاشم وأم الدرداء ومن نساء الخوارج البلعاء وغزالة وقظام وحمادة وكحيله ومن نساء الغالية ليلى الناعطية والصدوق وهند ، وأبو الوليد الحكم السكندی ومحمد بن محمد الجمراني وكلات وكليب وهاشم الأوقص وابوهاشم الصوفي وصالح بن عبد الجليل والخطفي وهو جد جرير بن عطية بن الخطفي وهو حذيفة بن بدر بن سامة

ومن القصاص أبو بكر الهزلي وهو عبد الله بن أبي سليمان كان خطيباً بيناً صاحب أخبار وآثار وقص ابنه مطرف بن عبد الله بن الشيخير في مكان أبيه ، ومن كبار القصاص ثم من هزيل مسلم بن جندب وعبد الله بن عرادة بن عبد الله بن الوضين ، ومن القصاص موسى الاسواري وكان من أعاجيب الدنيا كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس في مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن عيونه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها

للعرب بالعربية ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يدري بأى لسان هو أيبين واللغتان اذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل منها الضميمة على صاحبها الا ما ذكرنا من لسان موسى بن سيار الاسوارى
قال أبو عثمان : وشأن عبد القيس عجب وذلك انهم بعد محاربة أباد تفرقوا فرقتين فرقة وقعت بعمان وشق عمان وفيهم خطباء العرب وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين وهم من أشعر قبيلة في العرب ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سراة البادية وفي معدن الفصاحة وهذا عجب ومن خطبائهم المشهورين صعصعة ابن صوحان وزيد بن صوحان وشيخان بن صوحان ومنهم صحرار بن عياش وصحرار من شيعة عثمان وصوحان من شيعة علي ومنهم مصقلة بن رقبة ورقبة بن مصقلة وكرب بن رقبة

نقل بن النديم من خط بن مقلة أسماء الخطباء فاذا هم : أمير المؤمنين علي عليه السلام طلحة بن عبيد الله ، خالد واهما عيل ابنا عبد الله القسرى ، عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، جرير بن يزيد بن خالد ، يزيد بن عبد الله بن خالد ، خالد بن صفوان ، عبد الله بن الأهم ، صعصعة بن صوحان ، ابن القرية ، محمد ابن قيس الخطيب ، زياد بن أبي سفيان ، قطري بن الفجاءة ، الوليد بن يزيد ، أبو جعفر المنصور ، المأمون شبيب بن شيبه ، العباس بن الحسن العلوى ، محمد ابن خالد بن عبد الله القسرى وعبد الله ابنه ، شبة بن عقال

الخلاصة

قال ابو جعفر النحاس ان حفظ خطب البلغاء والتفنن في أساليب الخطباء من آكد ما يحتاج اليه الكاتب وذلك ان الخطب من مستودعات سر البلاغة ومجامع الحكم بها تفاخرت العرب في مشاهدتهم وبها نطقت الخلفاء الأمراء على منابرهم بها يتميز الكلام وبها يخاطب الخاص والعام وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة وعلى طريق الخطباء مشيت الكتاب ، قال أبو هلال العسكري : الرسائل والخطب متشاكلتان في انهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفيه وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل فالفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل والفرق بينهما أن الخطبة يشافه

بها بخلاف الرسالة والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة اه
ونحن نوصي القارئ أن لا يغفل خصوصاً عن خطب علي بن أبي طالب كرم
الله وجهه فإن نهج البلاغة أكبر كنز للخطيب والكتاب يستقيان منه مادة عقل
وعلم وأدب وبلاغة وسياسة وإدارة ونحن نضمن لمن كان له طبع شفاف اذا
استظهر نهج البلاغة وتقطن لما فيه من النكات العامية معتمداً مثلاً على شرح ابن
أبي الحديد المطول وتعمرن في أساليب الخطابة على مناحي البلغاء والعرب المستعربة
والعاربة والعرباء يوشك أن يكون من أئمة هذا الشأن في هذا العصر أيضاً فإن
كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه لا تبلى ديباجته وجدته ، وكما كرر حلاً ، ومهما
تأملته علا ، ففي كلامه عبقة من النور الألهي ، ونفحة من الروح النبوي ،
ولو لم يكن لسان العرب غير خطب الخليفة الرابع ، لكان كافياً في شرفه وبيانه
وأن يجرى على لغات الشرق والغرب ذبول الفخر والمباهاة

الخطابة عند الأفرنج

من تأمل في تاريخ الطرق الخطابية ير أن القدماء (١) أفرطوا في فن الخطابة
وأنه وإن صعب العثور على مبدأ معين في كتب الاقدمين وطريقتهم في خطاب
الجمهور فإن جميع المصنفات التعليمية تحوي إبهاماً خلطوا فيه بين علم الكتابة وعلم
الكلام ، فإن علم الخطابة لم يكن في نظر القدماء هو علم التكلم واللقاء ، بل علم
تحسين الكلام وتنسيق الانشاء . ومن تلاك كتاب الجمهورية لأفلاطون وفيه مباحث
جلية في الخطابة عند اليونان يتجلى له أن جميع خطباء آثينة كانوا ينمقون
العبارات قبل أن يتلوها وتراءى له من خلال سطورهم آثار العمل والاستعداد
قبل إلقاء خطبهم على مسامع الجمهور ، واذ كان يحظر على المحامي في آثينة أن يدافع
عن غيره اضطر بلغاء اليونان أن يكتبوا خطبهم في الدفاع ويعطوها لغيرهم
يستظهرها ليلقيها ولذلك قل المرتجلون من الخطباء في يونان وان وجدوا فهم
على ندرة

قال بعض المعاصرين لو لم يكن خطباء الأقدمين يهيئون خطبهم قبل إلقائها